الباب الثاني

أثر الإيمان في حياة الفرد

- الإيمان وكرامة الإنسان .
- الإيمان والسعادة .
- سكينة النفس .
- الرضا .
- الأمن النفسى .
- الأمل .
- الإيمان والحب .
- الثبات فى الشدائد .

أثر الإيمان فى حياة الفرد

هل نستطيع أن نحدد أهم ما يريد الفرد لنفسه ، وما ينشده فى حياته ؟ وما الذى تتطلع إليه نفسه ، ويسعى جاهداً لتحقيقه من الأهداف الكبيرة والغايات البعيدة ؟

نعم نستطيع أن نحدد ذلك إذا نظرنا إلى أنفسنا ونظرنا إلى البشر من حولنا، واستقرأنا أحوال البشر فى تاريخهم القريب والبعيد ..

نستطيع أن نحدد ذلك إذا عرفنا أن مقصودنا من الفرد هو الإنسان السوِّى لا الشاذ ، الإنسان السليم لا المختل المشوَّه المشوَّش .

إن الفرد يريد أن يشعر بإنسانيته ، ويحيا بخصائصها . يريد أن يحس بكرامته وذاتيته ، وان له وزناً وقيمة فى هذا الوجود ، يريد أن يشعر أن لوجوده غاية . ولحياته رسالة ، وأنه شيء مذكور بين أشياء هذا الكون العديد . وأنه مخلوق متميز عن القرود والدواب والحشرات ، وأنه لم يخلق فى هذه الأرض عبثاً، ولا أعطى العقل وعلم البيان اعتباطاً .

الفرد ينشد الكرامة ، وينشد معها القوة .. القوة تجاه الطبيعة ، وتجاه الأحداث ، القوة أمام طغيان الغير ، وأمام شهوات النفس ، على حد سواء . القوة على تحقيق الغايات وأداء الواجبات ، القوة التى تعوض الفرد عن ضعفه الجسدي ، وعجزه الخَلْقى ، وقصوره الذاتي ، إزاء الأقدار ، وإزاء الموت ، وإزاء المجتمع بقواه الكبيرة المتنوِّعة .

وهو ـ مع هذا ينشد شيئاً آخر . يلهث الناس جميعاً فى البحث عنه : إنه ينشد السعادة ، ينشدها فى هذه الحياة لا فى الحياة الأخرى فحسب .. لا يريد أن يقضى أيامه المقدَّرة له فى هذه الدنيا شقيًّا وتعيسا .. يريد أن يعيش

حياته ناعماً بسكينة النفس ، وطمأنينة القلب . يريد أن يتمتع بالأمن الداخلي يغمر جوانحه ، وبالرضا الذاتي يملأ عليه أقطار روحه ، وبالأمل المشرق يضيء له آفاق حياته ، وبالحب الكبير يغمر بالنور والضياء كل حناياه ، وكل جوانب دنياه .

هذه هي أهم وأعظم ما ينشده «الإنسان» السوِّي لنفسه ولكل من يحب من أهله ومن الناس .

أما الشواذ الذين يريدون أن يعيشوا ليأكلوا ويتمتعوا كما تتمتع الأنعام ، ثم ينفقوا (١) أخيراً كما تنفق الأنعام أيضاً .

وأما الذين يريدون أن يعيشوا كالذئاب والسباع ، تعدو وتسطو على غيرها بمنطق الناب والمخلب و تجد لذة في هذا السطو والعدوان .

أما هؤلاء وأُولئك وأمثالهم ، فليسوا مقياساً لكل البشر .. ومع هذا لا يبعد أن يفيق أحدهم أو يصحو .. ليفتش عن نفسه : أين هي ؟ وعن ذاته : ما هو؟ ويبحث - مع البشر الأسوياء - عن الكرامة والقوة ، عن السعادة والسكينة ، عن المعاني الإنسانية الرفيعة ، التي بدونها لا يجد الإنسان ذاته ، ولا يتذوق لحياته طعماً ولا يشعر لوجوده بمعنى أو قيمة .

فهل للإيمان أثر في تحقيق هذه المعاني الكبيرة ، والأهداف العميقة ، في حياة الفرد ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الفصول التالية من هذا الكتاب إن شاء الله .

* * *

---

(١) نفقت الدابة :هلكت .

الإيمان وكرامة الإنسان

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠]

● **الإنسان فى نظر الماديين :**

ما الإنسان ؟

إنه فى نظر الماديين قبضة من تراب هذه الأرض . من الأرض نشأ ، على الأرض يمشى ، ومن الأرض يأكل ، وإلى الأرض يعود !!

هو كتلة من اللَّحم والدم والعظام والأعصاب والأجهزة والغُدَد والخلايا ، وما العقل والتفكير إلا مادة يفرزها المخ ، كما تفرز الكبد الصفراء ، أو كما تفرز الكلية البول !هو كائن ليس له أهمية ولا امتياز على غيره ، إنه أحد الأحياء الكثيرة المتنوعة على هذه الأرض ، بل هو من جنس هذه الهوام والحشرات والزواحف والقرود ، غاية أمره أنه « تطور » بمرور الزمن فأصبح هذا الإنسان !!

والأرض التى يحيا عليها الإنسان ، إن هى إلا كوكب صغير ضمن المجموعة الشمسية ، التى هى مجموعة من مجاميع ضخمة كثيرة يضمها عالم الأفلاك ، تُعد بمئات الملايين .

هكذا أنبأنا الفلك الحديث ، وعرفنا من « كوبرنيكس » أن الإنسان شىء ضئيل فى الكون الكبير . . هذا من حيث المكان .

أما من حيث الزمان ، فقد جاء « دارون » وجاء الجيولوجيون فأثبتوا لنا أن الإنسان شىء تافه أيضاً من حيث الزمان ، فإن عمر الأرض يمتد إلى مئات الملايين من السنين ، فما قيمة أى مائة أو حتى مئات من الأعوام يعيشها الإنسان ؟

تلك هى قيمة الإنسان بالنسبة إلى المكان وإلى الزمان فى نظر الماديين .

إنهم لا يميزونه بما يسميه غيرهم «الروح الإلهى» أو «النفس الناطقة» إنه ليس إلا هذا الهيكل المادي أو هذا الجسم الحيواني .

وما قيمة هذا الجسم ، وهذا الهيكل الذى هو الإنسان ؟

« إن أحد العلماء رد جسم الإنسان إلى العناصر الأساسية فيه ، فخرج بالنتائج الآتية :

إذا جئنا بإنسان زنته مائة وأربعون رطلاً (١٤٠) وغلغلنا النظر فى تكوينه وجدنا بدنه يحتوى على المواد الآتية :

قدر من الدهن يكفى لصنع (٧) قطع صابون .

قدر من الكربون يكفى لصنع (٧) أقلام رصاص .

قدر من الفوسفور يكفى لصنع (١٢٠) عود ثقاب .

قدر من ملح المغنسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات .

قدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه .

قدر من الجير لتبييض بيت للدجاج .

قدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التى تسكن شعره .

قدر من الماء يملأ برميلاً سعته عشرة جالونات !

وهذه المواد تشترى من الأسواق بمبلغ من المال يساوى خمسين أو ستين قرشاً مصرياً !!

وتلك هى قيمة الإنسان المادية » (١) .

لا روح هنالك ولا نفحة من السماء يختص بها هذا الكائن الفذ !!

يقول أحد ملاحدة العرب المعاصرين :

« هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة ؟ ! نحن لا نساوى أكثر من

---

(١) من كتاب «نظرات فى القرآن» للأستاذ محمد الغزالى .

أنفسنا ، وكذلك الحشرات . ونحن لا نريد إلا أن نحقق أنفسنا ، وكذلك أيضاً الحشرات ؟ !

والفرق بيننا وبين الحشرات هو فرق التفوق فقط . وفرق التفوق بيننا وبين أرقى حيوان . لا يفوق أكثر كثيراً فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان !

ماذا نفقد أو يفقد الكون أو تفقد الشمس والقمر بفقدنا أنفسنا ؟! .

وليس ما ذهب إليه « دارون »و « فرويد » وأمثالهما من الماديين بأفضل من هذاه النظرة إلى الإنسان . إنه عندهم أخو الحشرات ، وصنو القرود ! إنهم لا يبصرون فيه إلا القشرة و الغلاف ، ولا يعرفون فيه إلا الطين والحمأ المسنون ! فهو مخلوق من طبيعته الانجذاب إلى أسفل ، وليس الرقى إلى أعلى ، من طبيعته الهبوط إلى الأرض ، وليس الارتفاع إلى السماء . هو ـ بعبارة موجزة ـ « حيوان متطور » ترقى من طَور إلى طَور حتى بلغ ما هو عليه . فالحيوانية فى الإنسان قشرته ولبه ، ولحمته وسداه .

فأى إيحاء للنفس الإنسانية أسوأ من هذا الإيحاء أثراً ؟ يرى الإنسان نفسه مخلوقاً هابطاً .. حيواناً .. طيناً وحمأً ! إنه لا يستغرب من نفسه الانحدار والتلوث والإسفاف ولا يستنكف من القذارة والأوحال أن يتمرغ فيها ، ويتلطخ بها ، بل المستغرب منه أن يتعفف و يتطهر ، وأن يحيا نظيفاً مستعلياً على الشهوات ، والمطامع المادية باذلاً النفس والمال فى سبيل الحق ، ابتغاء رضوان الله .

* * *

● الإنسان فى نظر المؤمنين :

أما الإنسان فى نظر المؤمنين فهو مخلوق كريم على الله ، خلقه ربه فى أحسن تقويم، وصوَّرة فأحسن صورته، خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وميَّزة بالعلم والإرادة، وجعل خليفته فى الأرض ، ومحور النشاط فى الكون ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فكل ما فى الكون له ولخدمته. أما هو فجعله تعالى لنفسه.

يقول الله تعالى فى بعض الآثار الإلهية : « ابن آدم » خلقتك لنفسى ،

وخلقتُ كل شيء لك ، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له ، ابن آدم ؛ خلقتك لنفسي فلا تلعب ، وتكلفتُ برزقك فلا تتعب . ابن آدم ؛ اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدتَ كل شيء ، وإن فُتني فاتك كل شيء ،وأنا أحب إليك من كل شيء » .

حقا إن الإنسان شيء ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه وحياة جسمه ، ولكنه من حيث روحه وكيانه المعنوي شيء كبير ، وهل الإنسان في الحقيقة إلا ذلك الروح وذلك الكيان المعنوى ؟

ولله در القائل :

دواؤك فيك وما تبصر   وداؤك منك وما تشعر !!

وتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالَم الأكبر !!

وحقاً إن الإنسان من حيث عمره القصير على الأرض ذرَّة في صحراء الأزمنة الجيولوجية البعيدة الضاربة في أغوار القِدَم ـ إن صح ما قالوا ـ ولكن المؤمنين : يؤمنون أن الموت ليس نهاية الإنسان ، إنه محطة انتقال إلى الأبد الذي لا نهاية له ، إلى دار الخلود . .إلى حيث يُقال للمؤمنين : ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾ [الزمر:٧٣] . .

وإذا كانت هذه كرامة الإنسان في نظر الدين عامة ، فله في الإسلام خاصة مكان أي مكان. تحدث القرآن عن الإنسان في عشرات بل مئات من آياته، وحسبنا أن أول فوج من آيات الوحي الإلهي نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ وكانت خمس آيات لم تُغفل شأن الإنسان وعلاقته بربه ـ علاقة الخلق والتكريم . وعلاقة الهداية والتعليم ، واختارت الآيات الأولى لفظ « الرب » لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدراج الكمال ، هذه الآيات الأولى في القرآن هي قوله تعالى : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق : ١ـ٥]

* * *

مكانة الإنسان من الله :

وفى آيات كثيرة من سور شتَّى ، بيَّن القرآن قرب الإنسان من الله ، وقرب الله من الإنسان ، ذلك القرب الذى حطم أُسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان، الذين جعلوا من أنفسهم « حُجَّاباً » على أبواب » رحمة الله الواسعة ، والله يعلم إنهم كاذبون . قال الله فى القرآن : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة:١٨٦] ... ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ [البقرة:١١٥] ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق:١٦] .. ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا** ﴾ [المجادلة:٧] ..

ويؤكد الرسول ﷺ هذا المعنى فى أحاديثه عن ربه : « أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى : إذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى . وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرَّب إلىَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرَّب إلىَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » (١) .

هذه مكانة الإنسان عند الله .

● مكانة الإنسان فى الملأ الأعلى :

أما مكانته هناك فى الملأ الأعلى ـ عند العوالم الروحية العُلوية ـ فهى مكانة اشرأبت إليها أعناق الملائكة المقرَّبين ،وتطاولت إليها نفوسهم فما أُوتوها . فإن الذى اختار الله له هذه المكانة ـ خلافة الله فى الأرض ـ هو الإنسان : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** *

---

(١) متفق عليه .

وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠-٣٣]

وقد أراد الله أن يكرم هذا النوع ويحتفى به ، ويظهر مكانه فى تلك العوالم الروحية ، فأمر الملائكة أن تؤدى التحية لهذا الكائن الجديد ، وتستقبله بانحناءة إجلال وإكبار : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ [ص : ٧١-٧٤] ..

لقد تمرد إبليس على أمر ربه بالتحية لهذا الإنسان ، ودفعه الحسد والغرور أن أبى واستكبر وكان من الكافرين ، واتخذ من الإنسان موقف التحدى والعداء ، فماذا كانت عاقبة هذا العدو المبين ؟ كانت كما ذكر القرآن قال : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [ص : ٧٧-٧٨] ..

وتلك هى مكانة الإنسان فى العوالم الروحية .

● مكانة الإنسان فى هذا العالم المادى :

أما مركز الإنسان فى هذا الكون المادى العريض فهو مركز السيد المتصرف الذى سُخِّر كل ما فى هذا العالم لنفعه ولإصلاح أمره ، وكأن كل شىء فى هذا الكون قد « نُسجَ » من أجله و « فُصِّلَ » على « قده » تفصيلاً ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٢-٣٤] ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ

وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ [الإسراء: ٧٠] ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾

[الجاثية: ١٢-١٣]

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ [لقمان: ٢٠] ..

وتلك هى مكانة الإنسان فى هذا الكون وصلته بما فيه .

وما الذى بوأ الإنسان هذه المكانة السامقة وفى الكون أجرام أضخم منه وأكبر ؟

إنه سر القبس الذى هو فيه من نور الله ، والنفخة التى فيه من روح الله .

تلك النفخة التى جعلته مستعداً للخلافة فى الأرض ، مستعداً لحمل الأمانة الكبرى .أمانة التكليف والمسئولية ، تلك التى صورها القرآن تصويراً أدبياً رائعاً حين قال :﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ..

هذا الاستعداد فى الإنسان هو الذى جعل مصيره بيده ـ بعد أن يسَّر الله له سُبل الهداية وأزاح عنه كل الأعذار :﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ [القيامة: ١٤] .. ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف: ٢٩] .. ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس: ٩-١٠] .. ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ [الإسراء: ٧٠] ..

لقد سما الإسلام بالإنسان فاعترف به كله ، روحه وجسده ، عقله وقلبه ، إرادته ووجدانه ، غرائزه الهابطة وأشواقه الصاعدة .. ولم يضع فى عنقه غلاً ، ولا فى رجله قيداً ، ولم يُحرِّم عليه طيباً ، ولم يُغلق فى وجهه باب خير ،ولم يدعه للمتاجرين بالدين يتلاعبون به ، بل خاطبه خطاباً مباشراً : ﴿ يا أيها الإنسان

رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦-٨] . ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] .

● علماء الإسلام يشيدون بمكانة الإنسان :

هذه صورة سريعة ، ولكنها واضحة التقاسيم لمكانة الإنسان كما رسمها القرآن ، وقد أشاد بهذه المكانة الإنسانية كل أئمة الإسلام وعلمائه فى مختلف البيئات والاختصاصات .

يقول الفقيه أبو بكر بن العربى :«ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله تعالى خلقه حياً عالماً ، وقادراً ، متكلماً بصيراً ، مدبراً ، حكيماً » .

وهذه هى صفات الرب جل وعلا ..

ويشرح الإمام الغزالى فى «إحيائه» أسباب محبة العبد لله تعالى ، فيذكر منها المناسبة والمشابهة بين ذات الإنسان وذات الله عز وجل ، وهى مناسبة باطنة «لا ترجع إلى المشابهة فى الصور والأشكال ، بل إلى معان باطنة ، يجوز أن يذكر بعضها فى الكتب ، وبعضها لا يجوز أن يُسطر» . قال : «فالذى يُذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية، حتى قيل : «تَخلَّقوا بأخلاق الله» وذلك فى اكتساب محامد الصفات التى هى من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللُّطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق ، والنصيحة لهم ، وإرشادهم إلى الحق ، ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة . فكل ذلك يُقرِّب إلى الله سبحانه وتعالى» .

«وأما ما لا يجوز أن يُسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة التى اختُص بها الآدمي ، فهى التى يومئ إليها قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] .. إذ بَيَّنَ أنه أمر ربانى خارج عن حد عقول الخلق . وأوضح من ذلك قوله تعالى :﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧٢] ولذلك أسجد له ملائكته . ويشير إليه قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص:٢٦] (١)، إذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة ..

---

(١) والظاهر أنه يقصد آية البقرة (٣٠) ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ لما يبدو من تعقيبه على الآية .

وإليه يرمز قوله ﷺ : « إن الله خلق آدم على صورته »[1] حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس ، فشبَّهوا، وجسَّموا ، وصوَّروا ، تعالى الله رب العالَمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً - وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى : « مرضتُ فلم تَعُدني ! فقال : يا ربُّ ، وكيف ذلك ؟ قال : مرض عبدى فلان ، فلم تعده ، ولو عُدتَهُ لوجدتنى عنده » .

وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى فى الحديث القدسى : « لا يزال عبدى يتقرَّب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى ينطق به »[2] . . (رواه البخارى) .

ويقول الإمام ابن القيم : « اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرَّمه وفضَّله وشرفه ، وخلقه لنفسه وخلق له كل شىء ، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يُعطه غيره ، وسخَّر له ما فى سمواته وأرضه وما بينهما ، حتى ملائكته - الذين هم أقل قُربة - استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته ، وظعنه وإقامته . . وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه وإليه . . فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات »[3] .

● عزة الإيمان بعد عزة الإنسانية :

هذه هى معانى الكرامة والعزة التى تغرسها العقيدة فى قلب المؤمن باعتباره « إنساناً » ولكنه بوصفه « مؤمناً » يشعر بمعان أعمق ، وعزة أشمخ ، ويسمو به إيمانه إلى سماء عالية لا يُسعى إليها على قدم ولا يُطار على جناح ؟

وهو بوصفه عضواً فى أمة الإيمان - يشعر بكرامة أكبر وعزة أخرى . ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران : ١١٠] ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا**

---

(١) رواه مسلم .
(٢) من كتاب « إحياء علوم الدين » ربع المنجيات ص ٢٦٣
(٣) مدارج السالكين ج ١ص٢١ . مطبعة السنة المحمدية .

شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣] .. ﴿ **هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج:٧٨] .. يشعر المؤمن بالعزة التي سجلها الله في كتابه للمؤمنين مقرونة بالعزة لنفسه ولرسوله : ﴿ **وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [المنافقون:٨]

ويشعر بأنه كتب له الكرامة والحرية التي بها يعلو ولا يُعلَى، ويسود ولا يُساد : ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾ [النساء:١٤١].

ويشعر أنه في ولاية الله البر الكريم ، ولاية المعونة والنصرة ، والرعاية والهداية : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ** ﴾ [محمد:١١]

﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ [البقرة:٢٥٧] ..

ويشعر المؤمن أنه في معية الله الذي يكلؤه دوما بعينه التي لا تنام ، ويحرسه في كنفه الذي لا يرام ، ويمده بنصره الذي لا يُقهر : ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأنفال:١٩]

﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الروم:٤٧] .. ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس:١٠٣] ..

ويشعر المؤمن أنه في حماية الله القوي القدير ، يذود عنه ، ويرد عن صدره سهام الكائدين والمعتدين :﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** ﴾ [الحج:٣٨] ..

والقرآن يجعل المؤمنين مقياساً لصلاح الأعمال أو فسادها ، فحكمهم عند الله معتبر ، ورؤيتهم للأعمال مقرونة برؤية الله ورسوله : ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [التوبة:١٠٥)] ..

وإذا كانت هذه الآية تُوحي بأن رضا المؤمنين من رضا الله ، فإن مقتهم أيضا من مقت الله سبحانه :﴿ **كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [غافر:٣٥] . .

أثر هذه المعانى والمشاعر فى نفسية الفرد :

إن هذه المعانى الكبيرة ، والمشاعر الرفيعة ، إذا سرت فى كيان فرد ، جعلت منه إنساناً عزيزاً كريماً ، كبير النفس ، كبير الآمال ، إنساناً لا يحنى رأسه لمخلوق ، ولا يطأطئ رقبته لجبروت ،أو طغيان أو مال أو جاه . إن شعاره هذه الكلمة : « سيد فى الكون ، عبد لله وحده » .

لا عجب بعد هذا ، إذا رأينا عبداً أسود كبلال بن رباح ، حين يشرب قلبه الإيمان ، يتيه على « السادة » المتكبرين فخراً ، ويرفع رأسه عالياً ، فقد صار بالإيمان، أرفع عند الله ذكراً ، وأسمى مقاماً ، ينظر أمية بن خلف وأبى جهل بن هشام وغيرهما من زعماء قريش وصناديد مكة ، نظرة البصير للأعمى ، نظرة السائر فى النور إلى المتخبط فى الدُجى ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام:١٢٢] . . ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الملك:٢٢]

ولا غرو بعد ذلك إذا رأينا أعرابياً أمياً من البُداة الجُفاة ، مثل ربعى بن عامر حين باشرت قلبه عقيدة الإسلام ، وأضاءت فكره آيات القرآن ،يقف أمام رستم قائد قوّاد الفرس ، وهو فى هيله وهيلمانه ، وأبهته وسلطانه ، غير مكترث له ، ولا عابئ به وبما حوله من خدم وحشم ، وما يتوهّج بجواره من فضه و ذهب ، حتى إذا سأله رستم : من أنتم؟ أجابه هذا الأعرابى فى عزة مؤمنة ، وإيمان عزيز ، وإجابة خلّدها التاريخ ، وقال : نحن قوم ابتعثنا الله لنُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جَور الأديان إلى عدل والإسلام .

ولا عجب أن نقرأ لشاعر مؤمن يناجى ربه فى عبودية عزيزة بالله ، متذللّة إليه ، غنية بالله ،فقيرة إليه ، قائلاً :

ومما زادنى شرفاً وعزاً — وكدت بأخمصى أطأ الثُريا

دخولى تحت قولك «يا عبادى» — وأن أرسلت أحمد لى نبيا !

● بين النظرة الإسلامية والنظرة المادية للإنسان :

إن اعتقاد الإنسان بكرامته على الله ، ومكانه فى الملأ الأعلى ، ومركزه القيادى فى هذا الكون ، يجعله يشعر بذاته ، ويُغالى بقيمة نفسه لأنه يعتز بانتسابه إلى الله ، وارتباطه بكل ما فى الوجود ، فيحيا عزيز النفس ، عالى الرأس، أبيًّا للضيم ، عصياً على الذل والهوان ، بعيداً عن الشعور بالتفاهة والضياع والعدم والفراغ . وهذا الإحساس الذى يعيش به المؤمن ليس شيئاً هيناً ولا بضاعة مُزجاة ، إنه كسب كبير ومغنم ضخم للإنسان ، وكسب له فى عالَم الشعور والتصور فى عالَم الواقع والسلوك . .

وما أعظم الفرق بين رجلين : يعيش أحدهما وهو يعتقد فى نفسه أنه مجرد (حيوان) من فصيلة راقية ليس له قبل حياته جذور ، وليس له بعد موته امتداد ، وليس له فى حياته صلة بالوجود الكبير أكثر من صلة القرود به . ويعيش الآخر وهو يعتقد أنه خليفة الله فى الأرض ونائبه فى إقامة الحق وإفاضة الخير وإشاعة الجمال فى هذا الكون ! ويشعر بأن الكون كله فى خدمته ، والملائكة الكرام فى حراسته ، وأن رب الوجود فى معيته ، وأنه من فصيلة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّقين والشهداء والصالحين ، وأن وجوده لا ينتهى بالموت ، وداره لا تنتهى بالقبر ، فإنما خُلِق للخلود وللأبد الذى لا ينقطع ولا يزول .

إن هذا الشعور الأصيل الذى بلغ حد الاعتقاد واليقين بمنزلة الإنسان فى الكون هو أحد النقاط الرئيسية التى تخالف فيها عقيدة الإسلام التفكير المادى الذى يسود حضارة الغرب فى النظرة إلى الإنسان .

إن المغايرة بين النظرتين تتمثل فى أُمور جوهرية ثلاثة :

١- فى منزلة الإنسان فى هذا الكون .

٢- وفى طبيعته التى فُطِر عليها .

٣- وفى غايته ووظيفته فى هذه الحياة .

منزلة الإنسان :

فالعقيدة الإسلامية قد حددت منزلة الإنسان فى هذا الكون منذ قال الله تعالى للملائكة : ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة : ٣٠] كما ذكرنا من قبل ، فهو نوع منفرد من مخلوقات الله ليس بجماد ولا نبات ولا بحيوان ، ولا بملاك ولا بشيطان ، إنه مخلوق مُكرَّم فريد مسؤول ، لا يقوم وحده فى هذا العالَم كما زعم بعض الملحدين ، بل يقوم بإرادة رب أوجده وقدَّره . إله خلقه فى أحسن تقويم ، وعلَّمه البيان ووهب له السمع والبصر والفؤاد ، ليس الإنسان عبداً ولا مقهوراً لشىء فى هذا الكون ، إلا أنه عبد الله وحده .

هذا فى عقيدة الإسلام ، أما النظرة المادية فلم تنظر للإنسان على أنه مخلوق كريم أوجده خالق عظيم . كلا ، بل هو نبات (شيطانى) برز من العدم إلى الوجود وحده ، ويعيش وحده ، ويموت وحده ، وبموته تُختم روايته كلها .

إنه باختصار حيوان قد يُقال عنه « حيوان راق » أو « حيوان اجتماعى » أو « حيوان متطوِّر » ولكنه على كل حال « حيوان » . بَيْدَ أنه بواسطة العلم التجريبى استطاع أن « يقهر » الطبيعة ويُسيطر على المادة ، وبذلك العلم أصبح هذا الحيوان المتطوِّر ، ينظر إلى نفسه وكأنه إله يتصرف فى الأرض كما يشاء . ويظن أنه قادر عليها .

إن هذه النظرة المادية للإنسان ، أنتجت شعورين مختلفين :

أولهما : شعور الإنسان بالتفاهة والضياع ونظرته إلى نفسه نظرة حيوانية بحتة .

والثانى : شعور الغرور والكبر ، ذلك الشعور الذى ينتهى بالإنسان إلى حد تأليه نفسه حين يُسقط وجود الإله الحق من اعتباره . ويتصرف وكأنه إله لا يُسئل عما يفعل ، كما زعم « جوليان هكسلى »[١] حين قال : « إن الإنسان فى العالَم الحديث أصبح هو الله المُنشئ المُريد » !!

ولما بدأ فى هذا القرن يفيق من سكرة غروره بالتقدم العلمى والانقلاب الصناعى والازدهار المادى بدأ يحس بأزمة نفسه باعتباره إنساناً متميِّزاً ، كما رأينا ذلك فى كتابات النُقَّاد منهم . مثل « ألكسيس كاريل » فى كتابه « الإنسان . . ذلك المجهول » ، وشبنجلر فى كتابه : « تدهور الحضارة الغربية » و « توينبى » و « رينيه جينو » و « كولن ولسون » وغيرهم .

● **طبيعة الإنسان** :

أما طبيعة الإنسان فهى من أخطر المزالق التى تزل فيها الأقدام ، وتضل فيها الأفهام ، عند النظرة إلى الإنسان ، نظراً للازدواج والتعقيد فى طبيعته التى رُكِّب عليها ، فليس هو شهوة خالصة ، ولا عقلاً خالصاً ، وليس هو جسماً محضاً ولا روحاً محضاً ، إن تكوينه يشمل الجانبين معاً .

يقول البروفيسور « سيشوت » العالِم الأمريكى والأستاذ بجامعة « ييل » فى كتابه « حياة الروح » :

« مسألة حيَّرت ألباب العلماء منذ عصور مُوغِلة فى القِدَم ، وهى طبيعة الإنسان المزدوجة الغريبة ، فالجانب المادى منه ـ وهو جسده ـ يحيا وينمو ثم يموت، ولكن شيئاً لا تُدركه الحواس يبدو أنه يحكم هذا الجسد ، وفى مقدور هذا الشىء أن يشعر وأن يفكر . إنه ذلك الجانب الذى تتركز فيه خلاصه كيانه .

فالإنسان يبدو وكأنه كائنان : كائن مادى وكائن آخر يقابله غير مادى ، تُرى هل كل منهما حقيقى ؟ أم أن أحدهما لا يعدو أن يكون وهماً من الأوهام !

---

(١) فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » ترجمة حسن خطاب ص ٢٢٤ .

والضلال والانحراف فى فهم الإنسان ، وتصور حقيقته ، إنما جاء نتيجة لإهمال أحد هذين العنصرين فى كيانه ، أو نتيجة للفصل بينهما ، واعتبار كل منهما منفصلاً عن الآخر» .

والإسلام قد عرف طبيعة الإنسان حق معرفتها ، وقدَّرها حق قدرها ، لأن الإسلام كلمة الله ، والإنسان خلق الله ، وخالق الشيء وصانعه لا يجهل طبيعته وكنهه : ﴿ **أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك:١٤] . .

وقد خلق الله هذا الإنسان جسماً كثيفاً ، وروحاً شفافاً . جسماً يشده إلا الأرض ، وروحاً يتطلع إلى السماء . جسماً له دوافعه وشهواته ، وروحاً له آفاقه وتطلعاته . جسماً له مطالب أشبه بمطالب الحيوان ، وروحاً له أشواق كأشواق الملائكة .

هذه الطبيعة المزدوجة ليس أمراً طارئاً على الإنسان ، ولا ثانوياً فيه ، بل هي فطرته التى فطره الله عليها ، وأهلَّه بها للخلافة فى الأرض ، منذ خلق آدم خلقاً جمع بين قبضة الطين ونفخة الروح ﴿ **ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [السجدة:٦-٩] . .

وجاءت عقيدة الإسلام ، فلم تُغفل الروح من أجل الطين ، ولم تُغفل الطين من أجل الروح . بل زاوجت بينهما فى وحدة متسقة ملتئمة ، وأعطت الروح حق، والجسد حقه ، فى غير إفراط ولا تفريط .

وعرف التاريخ أدياناً ونحلاً تقوم فلسفتها على إغفال الجانب المادى الجسدى فى الإنسان ، والعمل على تعذيبه وإضعافه ، لينمو الجانب الروحى فيه ، ويصفو ويقوى كالبرهمية الهندية ، والرهبانية المسيحية .

وفى مقابل هذا الاتجاه جاء الاتجاه المادى الذى يجحد أن فى الإنسان روحاً أو أن فى الكون إلهاً، إذ لا يؤمن إلا بما هو مادى تدركه الحواس، وتحكمه التجربة.

وبهذا عاش الإنسان عند هؤلاء نصف إنسان ، بل أدنى ، عاش للجزء الحيوانى فيه فحسب .

● غاية الإنسان :

وأما غاية الإنسان ومهمته فى الحياة فقد بينتها عقيدة الإسلام أوضح البيان ، فالإنسان لم يُخلق عبثاً ، ولم يُترك سُدى ، وإنما خُلِقَ لغاية وحكمة . لم يُخلق لنفسه ، ولم يُخلق ليكون عبداً لعنصر من عناصر الكون ، ولم يُخلق ليتمتع كما تتمتع الأنعام ، ولم يُخلق ليعيش هذه السنين التى تقصر أو تطول ، ثم يبلعه التراب ويأكله الدود ويطويه العدم .

إنه خُلِقَ ليعرف الله ويعبده ، ويكون خليفة فى أرضه ، خُلِقَ ليحمل الأمانة الكبرى فى هذه الحياة القصيرة : أمانة التكليف والمسؤولية ، فيصهره الابتلاء وتصقله التكاليف ، وبذلك ينضج ويُعَد لحياة أُخرى هى حياة الخلود والبقاء والأبد الذى لا ينقطع .

إنه لنبأ عظيم حقاً أن يكون هذا الإنسان لم يُخلق لنفسه ، وإنما خُلِقَ لعبادة الله ، ولم يُخلق لهذه الدنيا الصغيرة الفانية ، وإنما خُلِقَ للحياة الخالدة الباقية ، خُلِقَ للأبد !

يقولون : إن الأحمق يعيش ليأكل ، والعاقل يأكل ليعيش .

وهذا القول لا يحل العُقدة ، فإن العيش نفسه ليس غاية ، فالسؤال لا يزال قائماً : ولماذا يعيش الإنسان ؟ .

أما الماديون فقالوا : إنه يعيش لنفسه ومتاع دنياه .

وأما المؤمنون فقالوا : إنما يعيش لربه الأعلى ، ولحياته الباقية الأخرى : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦] .

وما أعظم الفرق بين الذى يعيش لنفسه والذى يعيش لربه ، بين من يعيش لدنياه المحدودة ، ومن يعيش لوجود غير محدود بزمان ولا مكان !

إن النظرة المادية الملحدة لم تعرف للإنسان غاية ، لأن الغاية تقتضى قصداً ، والقصد يقتضى قاصداً ، وهى تنكر أن يكون الإنسان قد خُلِقَ قصداً ، ولهذا فليس للإنسان فى نظرها رسالة غير رسالة الكدح وراء العيش وابتغاء تحسينه .

وبعبارة أُخرى : وراء زينة الحياة الدنيا ومتاعها . لا أكثر من ذلك ، فإذا فَنِيَ العمر القصير للإنسان ، فقد انتهى كل شيء فى وجوده ، وما أصدق قول القرآن : ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ** ﴾ [النساء:٧٧] . .

وهو ليس متاعاً قليلاً فحسب ، بل هو أيضاً متاع رخيص ، متاع حقير ، لأنه متاع حيوانى محض ، سَخِرَ بعض الأدباء من طُلاَّبه وعشاقه فقال : « مَنْ كانت غايته بطنه وفرجه فقيمته ما يخرج منهما » .

وحسبنا قول القرآن الكريم : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾ [محمد :١٢] . .

إن النظرة المادية للإنسان تجعله يدور حول نفسه فقط ، أى حول هواه وشهواته ، حول جسده ومتطلباته . حول الجزء الحيوانى فيه . وبذلك ينمو ويتضخم الجانب الحيوانى المادى فى الإنسان على حساب الجوانب الأُخرى التى تضمر وتنكمش ، أو تذبل وتموت .

ونمو الجانب المادى الحيوانى فى الإنسان بهذه السرعة والفخامة هو نمو خبيث « نمو سرطانى » يُفضى فى النهاية إلى هلاك الإنسان كله .

إنه لا بد للإنسان من هدف يتطلع إلى غير نفسه وهواها ، وإلا فإنه سيظل يور حولها كالحمار فى الرحا ، أو الثور فى الساقية ، ويدور ويدور والمكان الذى انتهى إليه هو الذى بدأ منه .

أو كما قال أحد الكُتَّاب الغربيين فى وصف « الوجوديين » الذين تدور فلسفتهم حول تحقيق الإنسان وجوده وذاته فحسب « إن الوجودى مثله كمثل الكلب الذى يجرى دائماً حول نفسه ليمسك بذنبه ، فلا هو يُدرك ذنبه ، ولا هو

يقف عن الجرى ، وهو لعبه يلعبها الكلاب ، حينما يجدون الفراغ ، فيلهون بما لا نتيجة له » .

وهذا التشبيه يُذَكِّرنا بالمثل الذى ضربه القرآن لكل من انسلخ عن آيات الله، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه ، قال تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ** ﴾

[الأعراف : ١٧٥-١٧٧]

* * *

الإيمان والسعادة

السعادة هى جنة الأحلام التى ينشدها كل البشر ، من الفيلسوف فى قمة تفكيره وتجريده ، إلى العامى فى قاع سذاجته وبساطته . ومن الملك فى قصره المشيد ، إلى الصعلوك فى كوخه الصغير . ولا نحسب أحداً يبحث عن الشقاء لنفسه ، أو يرضى بتعاستها .

● أين السعادة :

ولكن السؤال الذى حيَّر الناس من قديم هو : أين السعادة ؟

لقد طلبها الأكثرون فى غير موضعها ، فعادوا كما يعود طالب اللؤلؤ فى الصحراء ، صفراء اليدين ، مجهود البدن ، كسير النفس ، خائب الرجاء !

أجل .. جرب الناس فى شتَّى العصور ألوان المُتع المادية ، وصنوف الشهوات الحسية ، فما وجدوها ـ وحدها ـ تحقق السعادة أبداً ، وربما زادتهم ـ مع كل جديد منها ـ هماً جديداً .

● هل السعادة فى النعيم المادى ؟

لقد ظن ذلك قوم ، فحسبوا السعادة فى الغِنى ، وفى رخاء العيش ، ووفرة النعيم ، ورفاهية الحياة ، لكن البلاد التى ارتفع فيها مستوى المعيشة ، وتيسرت فيها لأبنائها مطالب الحياة المادية ، من مأكل ومشرب ، وملبس ومسكن ومركب ، مع كماليات كثيرة ، لا تزال تشكو من تعاسة الحياة ، وتحس بالضيق والانقباض ، وتبحث عن طريق آخر للسعادة .

نشر رئيس تحرير مجلة « روزاليوسف » ـ وهى مجلة لا تُتهم بالتحيز للمعنويات والقيم الروحية ـ تحقيقاً صحفياً فى مقالين منذ سنوات جعل عنوانه : « أهل الجنة ليسوا سعداء » وأهل الجنة الذين يعنيهم هم سكان السويد الذين

يعيشون فى مستوى اقتصادى يشبه الأحلام ، ولا يكاد يوجد فى حياتهم خوف من فقر أو شيخوخة أو بطالة أو أى كارثة من كوارث الحياة ، فإن الدولة تضمن لكل فرد يُصيبه شيء من ذلك إعانات دورية ضخمة ، بحيث لا يجد مواطن مجالاً للشكوى من العوز أو الحاجة الاقتصادية بحال من الأحوال .

إن ما يخص الفرد الواحد فى السويد من الدخل القومى يساوى ٥٢١ جنيهاً مصرياً فى العام أى حوالى ٤٣ جنيهاً فى الشهر الواحد فى الوقت الذي كان يتقاضى فيه الموظف الجامعي ١٨ جنيهاً .

ووصل نظام الحكم الاشتراكى فى السويد إلى ما يقارب محو الفروق تماماً بين الطبقات ، بفرض الضرائب التصاعدية ، وإيجاد مختلف التأمينات الصحية والاجتماعية ، التى لا تجدها دول أخرى .

« كل مواطن سويدى يستحق معاشاً ، وإعانة مرض ، ومعاش عدم صلاحية ، وإعانة غلاء معيشة ، وإعانة للسكن ،وإعانة للعمى ، تُصرف نقداً ، والعلاج المجانى فى المستشفيات » .

« تُدفع إعانة أمومة لكل النساء ، تشمل هذه الإعانة مصاريف الولادة الرعاية الطبية فى المستشفى . وإعانة إضافية لكل مولود » .

« التأمين ضد إصابات العمل إجبارى » .

« شروط الإعانات فى حالة البطالة هى أسمى شروط معروفة دولياً » .

« تُقدم الدولة مساعدات اجتماعية للطفولة هى أقرب إلى الخيال . منها إعانة مالية قدرها ٤٠ جنيهاً فى العام للطفل حتى يبلغ ١٦ سنة . رعاية صحية مجانية . مصاريف انتقال مجانية للإجازات يتميع بها الطفل حتى سن ١٤ سنة ، مدارس برسوم تافهة لرعاية الأطفال دون سن المدرسة طول اليوم » .

« التعلم فى جميع مراحله بالمجان مع تقديم إعانات ملابس ، وإعانات معيشة لغير القادرين ، وتُقدم للطلبة قروض دراسية تصل إلى ٢٥٠ جنيهاً للطلبة المجتهدين » .

« تُقدِّم الدولة قروضاً لتأثيث منازل العرسان تصل إلى ٣٠٠ جنيه بفائدة بسيطة تسدد على خمس سنوات » .

« إن ثلث الضرائب التى يدفعها الشعب السويدى تُنفقها الدولة فى التأمينات الاجتماعية وتدفع الدولة ٨٠٪ منها فى مساعدات نقدية ، إن أضخم ميزانية هى ميزانية وزارة الشؤون الاجتماعية . ثم تليها ميزانية وزارة التربية » .

ومع هذه الضمانات التى لم تدع ثغرة إلا سدتها ـ فقد ذكر الصحفى أن الناس يحيون حياة قلقة مضطربة ، كلها ضيق وتوتر ، وشكوى وسخط ، وتبرم ويأس . ونتيجة هذا أن يهرب الناس من هذه الحياة الشقية النكدة . عن طريق « الانتحار » الذى يلجأ إليه الألوف من الناس ، تخلصاً مما يعانونه من عذاب نفسى أليم .

وانتهى كاتب التحقيق إلى أن السر وراء الشقاء يرجع إلى أمر واحد هو فقدان « الإيمان » أى إيمان ؟ !

وأمريكا أغنى بلد فى العالَم ، لم يحقق الغنى لأبنائه السعادة على الرغم من ناطحات السحاب ، ومراكب الفضاء ، وتدفق الذهب من فوقهم ومن تحت أرجلهم . . ورأينا من مفكريهم من يقول :« إن الحياة فى نيويورك غطاء جميل لحالة من التعاسة والشقاء » !

وقد لاحظ هذه التعاسة وهذا الشقاء كل من له عين تُبصر من أهل الشرق والغرب .

فمن أهل الشرق الشهيد العظيم « سيد قطب » الذى سجل ذلك فى كتابه ـ الذى لم يُنشر بعد ـ « أمريكا التى رأيت » .

ومن أهل الغرب الأديبة الفرنسية « فرانسواز ساجان » التى زارت نيويورك مرتين ثم كتبت بعد ذلك كتاباً جاء فيه : « إن نيويورك ثقيلة الوطأة على الإنسان ، مدينة ينبض قلبها بسرعة أكبر من سرعة سكانها ، والواقع أن الأزمة التى يعانيها سكان نيويورك أزمة عاطفية . إن الدم الفوَّار يجرى فى عضلات أولئك الأمريكيين

المُتعبين المنهوكي القُوى العجلين . إنهم يريدون أن يقتصدوا في الوقت دون أن يعرفوا كيف ينفقون ذلك الوقت » .

وكذلك الأستاذ « كولن ولسون » الذى وصف عمران نيويورك وازدهارها المادى ، بأنه « غطاء جميل لحالة من التعاسة والشقاء » .

فكثرة المال ليست هي السعادة ، ولا العنصر الأول في تحقيقها ، بل ربما كانت كثرة المال أحياناً وبالاً على صاحبها في الدنيا قبل الآخرة ، لذا قال الله في شأن قوم من المنافقين : ﴿ **فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [التوبة:٥٥] .. والعذاب هنا هو المشقة والنَصَب والألم والهم والسقم ، فهو عذاب دنيوى حاضر ، على نحو ما ورد في الحديث : « السفر قطعة من العذاب » (١) وهذا ما نشاهده بأعيننا في كل من جعل المال والدنيا أكبر همه ، ومبلغ علمه ، ومنتهى أمله ، فهو دائماً معذَّب النفس ، متعَب القلب ، مثقَل الروح ، لا يُغنيه قليل ، ولا يُشبعه كثير .

وفي الحديث الذى رواه أنس عن النبى ﷺ تصوير لهذه النفسية المعذَّبة قال : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له » (٢) .

ومن أبلغ العذاب في الدنيا ـ كما قال ابن القيم (٣) ـ تشتيت الشمل وتفريق القلب ، وكون الفقر نصب عينيه لا يفارقه ، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب .. على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه . ومن أنواع العذاب : عذاب القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه ، ومقاساة معاداتهم ، وكما قال بعض السَلَف : « من أحب الدنيا فليوطن نفسه على

---

(١) متفق عليه

(٢) رواه الترمذى من حديث أنس ، وروى ابن ماجه وغيره قريباً منه من حديث زيد ابن ثابت .

(٣) في كتابه « إغاثة اللَّهفان » .

تحمل المصائب » ومحب الدنيا لا ينفك عن ثلاث : هَم لازم ، وتعب دائم ، وحسرة لا تنقضى ، وذلك أن مُحبها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه كما فى الحديث : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً »[1] . وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً .

● هل السعادة فى الأولاد ؟

حقيقة أن الأولاد زهرة الحياة ، وزينة الدنيا ، ولكن كم من أولاد جَرُّوا على آبائهم الويل وجزوهم بالعقوق والكفران بدل البر والإحسان ، بل كم من آباء ذاقوا حتفهم على يد أولادهم طمعاً فى ثرواتهم ، أو لوقوفهم فى سبيل شهواتهم .

لقد وجدنا من الآباء من يقول لولده آسفاً آسياً :

غذوتُك مولوداً وعُلتك يافعا ... تُعَلُّ بما أسدى إليك وتنهل

إذا ليلة نابتك بالشجو لم أبت ... لبلواك إلا ساهراً أتململُ

فلما بلغتَ السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنتُ فيك أؤملُ

جعلتَ جزائى غِلظة وفظاظة ... كأنك أنت المُنعم المتفضلُ

وكم رأينا فى الحياة صوراً غريبة ، وسمعنا أحاديث أغرب ، عن عقوق الأبناء وتعاسة الآباء ، وهذا ما جعل الآباء ما برحوا على مر العصور ، يشدُّون شَعْرهم حنقاً من جحود أبنائهم ، حتى إن الملك « لير » صرخ - على لسان شكسبير - قائلاً « ليس أشد إيلاماً من ناب حية رقطاء ، غير ابن جحود » .

وما جعل شاعراً فى الشرق يصرخ ويقول :

أرى ولد الفتى ضرراً عليه ... لقد سعد الذى أمسى عقيماً

فإما أن يربيه عدواً ... وإما أن يخلفه يتيما

وإما أن يوفيه حِمام ... فيترك حزنه أبداً مقيماً

---

(١) متفق عليه .

ثم ما حيلة الذين حُرِموا من الأولاد ؟ أحُكِمَ عليهم بالشقاء المؤبد والتعاسة الدائمة ؟؟

● هل السعادة فى العلم التجريبى ؟

تُرى هل يستطيع العلم المادى التجريبى ، الذى قرَّب للإنسان البعيد ، وذلَّل له الصعب ، أن يُحقِّق له السعادة ؟

والحقيقة كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل (١) : «إن العلم قد كشف لنا عن كثير مما فى الحياة ، وأتاح لنا الاستمتاع بنعيمها إلى حد لم يكن يخطر بخيال أحد من قبل .

والحقيقة كذلك أن الظمأ للمعرفة بعض طبائع الإنسان ، فهو ما يكاد يقف على شيء ويكتنه بواطنه حتى تدفعه الطلعة لكى يقلب فى هذه البواطن أو يبحث عن جديد لما يخضع لعلمه . لكن الحقيقة كذلك أن المعرفة لا تبقى سبباً للسعادة . بل إنها كثيراً ما تكون داعية قلق النفس ، واضطراب الخاطر . والسعادة هذا الحلم الجميل الطائر أمام أعيننا بأجنحة من نور ، هذا الأثير المُحَس نتنسم فى الجو ذراته ونريد أن نستنشقها ملء صدورنا فلا نجد منها أبدا ما يكفينا. السعادة هى ما يجرى بنو الإنسان وراءه من عهد آدم إلى اليوم يجرون وما يكاد أحدهم يحسب نفسه أدركها حتى يجذبه من خلفه شيطان الشقاء فيصده عنها، هذه السعادة ليست فى العلم ، لأن العلم شهوة ، وليس من وراء شهوة سعادة ، وكثيراً ما أكبَّ علماء على العلم فأفنوا فيه حياتهم حتى إذا كانوا عند خاتمة المطاف منها لذعتهم الحسرة ، أن زادوا أنفسهم بعلمهم هماً ، فأوصوا أن ينشأ أبناؤهم فى الإيمان وأن يرسلوا فى الحياة على سجيتهم ، وألا يطلبوا إلى العلم حل طلاسم الغيب .

فعلمنا وإن اتسع المدى ضيق إذا قيس إلى مدى الوجود الذى لا نهاية له ، بذلك أوصى «نيتشه» وغير نيتشه من أكابر العلماء الذين أفنوا صدر شبابهم بأن

---

(١) فى كتاب « الإيمان والمعرفة والفلسفة » .

العلم هاتك حُجب الغيب لا محالة ، حتى إذا رأوا حُجب الغيب لا تنتهى ضعفوا، وخُيِّل إليه أنهم كانوا يسعون وراء سراب لا حقيقة له ، وإن كانت غاية هذا السراب كل حقيقة » .

والفيلسوف البريطانى المعاصر « برتراند راسل » - رغم نظرته المادية - يقرر أن الإنسان فى صراعه مع الطبيعة قد انتصر ، بواسطة العلم . أما فى صراعه مع نفسه ، فلم يُحرز نصراً ، ولم يُجْدِه سلاح العلم ، ويعترف بأن الدين لم يزل هو صاحب هذا الميدان .

ويقول الدكتور « هنرى لنك » طبيب النفس الأمريكى الشهير ، معارضاً للذين ينكرون الإيمان بالغيب ، باسم العلم واحترام الفكر ، مبيناً أن العلم وحده لا يستطيع أن يحقق للإنسان أسباب السعادة الحقة :

« والواقع أنه يوجد الآن فى كل ميدان من ميادين العلم من الظواهر ما يؤجج شعلة ذلك الضلال ، وأعنى به تعظيم شأن الفكر ، ومع ذلك كان علماء النفس هم الذين توصَّلوا إلى أن الاعتماد المطلق على التفكير فحسب ، كفيل بهدم سعادة الإنسان ، وإن لم يقوِّض دعائم نجاحه . ثم إن إماطة اللثام عن هذا الاكتشاف لم تتم إلا عن طريق تجارب هؤلاء العلماء مع الناس ، اختباراتهم العلمية التى أجروها على الآلاف . وبقى أن أقول : إن الوصول إلى هذه المكتشفات قدتم بالنسبة لعلاقتها بطرق التعليم والدين ، والشخصية وفلسفة الحياة عموماً .

فلن نهتدى إلى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة ، ولن ننهل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها . فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك واضطراد التخبط ، وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة وإخضاعها ، فلن تؤدى هذه العلوم إلى تحرير العقول التى ابتدعتها وابتكرتها ، بل ستقود حتماً إلى انهيار هذه العقول وتعفنها ، كما أن هذا التوحيد لا بد أن يأتى عن طريق آخر غير طريق العلم ، وأعنى به طريق الإيمان » (١) .

(١) العودة إلى الإيمان ص: ٨١ - ٨٢

● **السعادة فى داخل الإنسان :**

السعادة إذن ليست فى وفرة المال ، ولا سطوة الجاه ، ولا كثرة الولد ، ولا نيل المنفعة ، ولا فى العلم المادى .

السعادة شىء معنوى لا يُرى بالعين ، ولا يُقاس بالكم ، ولا تحتويه الخزائن ، ولا يُشترى بالدينار ، أو الجنيه أو الروبل أو الدولار .

السعادة شىء يشعر به الإنسان بين جوانحه .. صفاء نفس ، وطمأنينة قلب، وانشراح صدر ، وراحة ضمير .

السعادة شىء ينبع من داخل الإنسان ولا يُستورد من خارجه .

حدَّثوا أن زوجاً غاضب زوجته فقال لها متوعداً : لأشقينك . فقالت الزوجة فى هدوء : لا تستطيع أن تُشقينى ، كما لا تملك أن تُسعدنى .

فقال الزوج فى حنق : وكيف لا أستطيع ؟

فقالت الزوجه فى ثقة : لو كانت السعادة فى راتب لقطعته عنى ، أو زينة من الحُلى والحُلَل لحرمتنى منها ولكنها فى شىء لا تملكه أنت ولا الناس أجمعون !

فقال الزوج فى دهشة : وما هو ؟

فقالت الزوجة فى يقين : إنى أجد سعادتى فى إيمانى ، وإيمانى فى قلبى ، وقلبى لا سلطان لأحد عليه غير ربى !

هذه هى السعادة الحقة ، السعادة التى لا يملك بشر أن يعطيها ، ولا يملك أن ينتزعها ممن أُوتيها ، السعادة التى شعر بنشوتها أحد المؤمنين الصالحين فقال : إننا نعيش فى سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف !

وقال آخر وهو ثمل بتلك اللَّذة الروحية التى تغمر جوانبه : إنه لتمر علىَّ ساعات أقول فيها : لو كان أهل الجنة فى مثل ما أنا فيه الآن لكانوا إذن فى عيش طيب !

والذين رُزقوا هذه النعمة يسخرون من الأحداث وإن برقت ورعدت ، ويبتسمون للحياة وإن هي كشَّرت عن نابها ، ويُفلسفون الألم ، فإذا هو يستحيل عندهم إلى نعمة تستحق الشكر ، على حين هو عند غيرهم مصيبة تستوجب الصراخ والشكوى . كأنما عندهم غُدَد روحية خاصة ، مهمتها أن تفرز مادة معينة تتحوَّل بها كوارث الحياة إلى نِعَم .

● **القدر المادى اللازم لتحقيق السعادة :**

ولا نجحد أن للجانب المادى مكاناً فى تحقيق السعادة ، وكيف ؟ وقد قال رسول الإسلام : « من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح » (١) .

بَيْدَ أنه ليس المكان الأول ولا الأفسح ، والمدار فيه على الكيف لا على الكم، فحسب الإنسان أن يسلم من المنغصات المادية التى يضيق بها الصدر ، من مثل : المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء ، وأن يُمنح الأمن والعافية ، ويتيسر له القوت فى غير حرج ولا إعنات . وما أصدق وأروع الحديث النبوى : « من أصبح آمنا فى سربه ، معافًى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »(٢) . .

وإذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية ، والقلب الإنسانى ، فإن الإيمان بالله وبالدار الآخرة هو ماؤها وغذاؤها ، وهواؤها وضياؤها .

لقد فجَّر الإيمان فى قلب الإنسان ينابيع السعادة ، لا يمكن أن تغيض ، ولا أن تتحقق السعادة بغيرها . تلك هى ينابيع السكينة ، والأمن ، والأمل ، والرضا، والحب ، وسنخص كلا منها بالحديث فيما يلى من الصفحات .

* * *

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح من حديث سعد بن أبى وقاص .

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وقال : حسن غريب ، وابن ماجه .

سكينة النفس

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾
[الفتح : ٤]

● **لا سعادة بلا سكينة :**

منذ أعوام قرأت في مجلة « المختار » كلمة ناضرة لأحد الأطباء اللامعين في أمريكا ، قال فيها :

« وضعتُ مرة وأنا شاب جدولاً لطيبات الحياة المُعترف بها ، فكتبتُ هذا البيان بالرغائب الدنيوية : الصحة ، والحب ، والموهبة ، والقوة ، والثراء ، والشهرة ، ثم تقدمتُ فى زهو إلى شيخ حكيم .

فقال صديقى الشيخ : جدول بديع ، وهو موضوع على ترتيب لا بأس به ، ولكن يبدو لى أنك أغفلت العنصر المهم الذى يعود جدولك بدونه عبثاً لا يُطاق ، وضرب بالقلم على الجدول كله ، وكتب كلمتين : « سكينة النفس » وقال : هذه هى الهبة التى يدخرها الله لأصفيائه ، وإنه ليعطى الكثيرون الذكاء والصحة ، والمال مبتذل ، وليست الشهرة بنادرة ، وأما سكينة القلب ، فإنه يمنحها بقدر .

وقال على سبيل الإيضاح : ليس هذا برأى خاص لى ، فما أنا إلا ناقل من المزامير ، ومن أُوريليوس ، ومن لادنس ، هؤلاء الحكماء يقولون : خل يا رب نِعَم الحياة الدنيا تحت أقدام الحمقى ، وأعطنى قلباً غير مضطرب !

وقد وجدتُ يومئذ أن من الصعب أن أتقبل هذا ، ولكن الآن بعد نصف قرن من التجربة الخاصة ، والملاحظة الدقيقة ، أصبحتُ أدرك أن سكينة النفس هى الغاية المُثلى للحياة الرشيدة ، وأنا أعرف الآن أن جملة المزايا الأخرى ليس من الضروى أن تُفيد المرء السكينة ، وقد رأيتُ هذه السكينة تزهو بغير عون من المال . بل بغير مدد من الصحة ، وفى طاقة السكينة أن تحول الكوخ إلى قصر رحب ، أما منها فإنه يُحيل قصر الملك قفصاً وسجناً » اهـ .

هذا كلام رجل يعيش فى أمريكا بلد الرفاهية والغنى ، بلد الذهب والعلم، بلد الحرية والانطلاق .قاله الرجل بعد ممارسة وتجربة وخبرة بالحياة ، فلم يجد فى الحياة نعمه أغلى ولا أفضل ولا أيمن من سكينة النفس ، وطمأنينة القلب . وهو كلام حكيم نسجله وننتفع به ، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها .

● لا سكينة بلا إيمان :

سكينة النفس - بلا ريب - هى الينبوع الأول للسعادة ، ولكن كيف السبيل إليها إذا كانت شيئاً لا يُثمره الذكاء ولا العلم ولا الصحة والقوة ، ولا المال والغنى، ولا الشهوة والجاه ، ولا غير ذلك من نِعَمِ الحياة المادية ؟

إننا نجيب مطمئنين : إن للسكينة مصدراً وحداً لا شريك له ، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، الإيمان الصادق العميق، الذى لا يكدره شك ولا يفسده نفاق .

وهذا ما يشهد به الواقع الماثل ، وما أيده التاريخ الحافل ، وما يلمسه كل إنسان بصير منصف ، فى نفسه وفيمن حوله .

لقد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقاً وضيقاً واضطراباً ، وشعورا بالتفاهة والضياع هم المحرمون من نعمة الإيمان ، وبرد اليقين .

إن حياتهم لا طعم لها ولا مذاق، وإن حفلت باللذائذ والمرفهات، لأنهم لا يدركون لها معنى ، ولا يعرفون لها هدفاً ، ولا يفقهون لها سراً ، فكيف يظفرون مع هذا بسكينة نفس ، أو انشراح صدر ؟

إن هذه السكينة ثمرة من ثمار دوحة الإيمان ، وشجرة التوحيد الطيبة ، التى تُؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

فهى نفحة من السماء ينزلها الله على قلوب المؤمنين من أهل الأرض ، ليثبتوا إذا اضطرب الناس ، ويرضوا إذا سخط الناس ، ويُوقنوا إذا شك الناس ، ويصبروا إذا جزع الناس ، ويحلموا إذا طاش الناس .

هذه السكينة هى التى عمرت قلب رسول الله يوم الهجرة ، فلم يعره هَمٌّ ولا حزن ، ولم يستبد به خوف ولا وجل ، ولم يخالج صدره شك ولا قلق

﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠]

لقد غلبت على صاحبه الصدِّيق مشاعر الحزن والإشفاق ، لا على نفسه وحياته ، بل على الرسول ، وعلى مصير الرسالة ، حتى قال والأعداء مُحدقون بالغار : يا رسول الله ؛ لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ! فيقول الرسول مُثَبِّتاً فؤاده : « يا أبا بكر ؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما » (١) ؟ !

هذه السكينة روح من الله ، ونور ، يسكن إليه الخائف ، ويطمئن عنده القلق ، ويتسلى به الحزين ، ويستروح به المُتعَب ، ويقوى به الضعيف ، ويهتدى به الحيران .

هذه السكينة نافذة إلى الجنة يفتحها الله للمؤمنين من عباده ، منها تهب عليهم نسماتها ، وتشرق عليهم أنوارها ، ويفوح شذاها وعطرها ، ليُذيقهم بعض ما قدَّموا من خير ، ويُريهم نموذجاً صغيراً لما ينتظرهم من نعيم ، فينعموا من هذه النسمات بالروح والريحان ، والسلام والأمان .

● أسباب السكينة لدى المؤمن :

قد يسأل سائل : لماذا كان المؤمن أولى الناس بسكينة النفس ، وطمأنينة القلب ؟ ولماذا لا يجد الإنسان السكينة فى العلم والثقافة والفلسفة ، وفيما أنتجه التقدم العلمى من وسائل وأدوات يَسَّرت العيش وجَمَّلت الحياة ؟

والجواب عن ذلك : يحوجنا إلى شيء من البسط والتفصيل ، لبيان الأسباب والسُّنَن النفسية التى جعلت المؤمن - دون غيره - أحق الناس بالسكينة والاطمئنان . وإليك البيان :

● استجابة المؤمن لنداء الفطرة :

إن أول أسباب السكينة لدى المؤمن أنه قد هُدىَ إلى فطرته التى فطره الله

---

(١) رواه البخارى .

عليها ، وهى فطرة متسقة كل الاتساق مع فطرة الوجود الكبير كله ، فعاش المؤمن مع فطرته فى سلام ووئام ، لا فى حرب وخصام . إن فطرة الإنسان إنسان فراغاً لا يملؤه علم ولا ثقافة ولا فلسفة ، وإنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا .

وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والوجع والظمأ ، حتى تجد الله ، وتؤمن به ، وتتوجَّه إليه .

هناك تستريح من تعب ، وترتوى من ظمأ ، وتأمن من خوف . هناك تحس بالهداية بعد الحيرة ، والاستقرار بعد التخبط ، والاطمئنان بعد القلق ، ووجدان المنزل والأهل بعد طول الغُربة ، والضرب فى أرض التيه .

فألقت عصاها واستقربها النوى　　　كما قَرَّعينا بالإياب المسافر

فإذا لم يجد الإنسان ربه ـ وهو أقرب إليه من حبل الوريد ـ فما أشقى حياته ، وما أتعس حظه ، وما أخيب سعيه !

إنه لن يجد السعادة ، ولن يجد السكينة ، ولن يجد الحقيقة . . لن يجد نفسه ذاتها . ﴿ **كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [الحشر:١٩] .

فتصوَّر إنساناً يعيش دون أن يجد نفسه ، وهو فى رأى نفسه ، وفى نظر الناس بشر عاقل ، سميع بصير ، بل لعله جامعى مثقف ، ولعله ـ فوق ذلك ـ « دكتور » كبير فى العلوم والآداب !

وكيف يجد نفسه مَن لم يعرفها ؟ وكيف يعرفها من حُجِبَ عنها بالغرور والكبر ؟ أو شُغِل عنها باتباع الشهوات ، والإخلاد إلى الأرض ، والغرق فى لذائذ الحس ، ومطالب الجسد والطين ؟

إن الإنسان خلق عجيب ، جمع بين قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله . فمن عرف جانب الطين ، ونسى نفخة الروح ، لم يعرف حقيقة الإنسان .

ومن أعطى الجزء الطينى فيه غذاءه وريه مما أنبتت الأرض . ولم يعط الجانب الروحى غذاءه من الإيمان ومعرفة الله ، فقد بخس الفطرة الإنسانية حقها ، وجهل قدرها ، وحرمها ما به حياتها وقوامها .

قال ابن القيم [١] ـ رحمه الله :

« في القلب شعث لا يُلمه إلا الإقبال على الله .

وفيه وحشة لا يُزيلها إلا الأنس بالله .

وفيه حزن لا يُذهبه إلا السرور بمعرفته ، وصدق معاملته .

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه ، والفرار إليه .

وفيه نيران حسرت لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه .

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تُسَد تلك الفاقة أبداً » .

وهذا ليس كلام عالم فحسب ، بل كلام ذائق مُجرِّب ، يقول ما خبره وأحس به في نفسه ، وما رآه ولاحظه في الناس من حوله .

إنها الفطرة البشرية الأصيلة التي لا تجد سكينتها إلا في الاهتداء إلى الله والإيمان به ، والالتجاء إليه .

إنها الفطرة التي لم يملك مشركو العرب في جاهليتهم أن ينكروها مكابرة وعناداً ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [العنكبوت : ٦١] [٢] ..

وقد يتراكم على هذه الفطرة صدأ الشبهات أو غبار الشهوات . وقد تنحرف وتتدنس باتباع الظن أو اتباع الهوى ، أو التقليد الجاهل للأجداد والآباء ، أو الطاعة العمياء للسادة والكبراء . وقد يُصاب الإنسان بداء الغرور والعُجب فيظن نفسه شيئاً يقوم وحده ، ويستغني عن الله !!

بَيْدَ أن هذه الفطرة الأصيلة تذبل ولا تموت ، وتكمن ولا تزول . فإذا أصاب الإنسان من شدائد الحياة وكوارثها ما لا قِبَلَ له به ، ولا يد له ولا للناس في دفعه ،

(١) في كتاب « مدارج السالكين » .

(٢) وقد تكرر هذا المعنى في عدة سور .

ولا رفعه ، فسرعان ما تزول القشرة السطحية المضللة ، وتبرز الفطرة العميقة الكامنة ، وينطلق الصوت المخنوق المحبوس ، داعياً ربه ، منُيباً إليه . كما قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾ [الإسراء:٦٧] .

هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون فى تاريخ الأمم والأديان والحضارات، فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بإلَه ، حتى قال أحد كبار المؤرخين : « لقد وُجدَت فى التاريخ مدن بلا قصور ولا مصانع ولا حصون ، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد » .

والانحراف الكبير الذى أصاب البشرية فى تاريخها الطويل ، لم يكن بإنكار وجود الله والعبودية له ، وإنما كان بتوجيه العبادة لغيره ، أو إشراك آلهة أخرى معه من مخلوقات الأرض أو السماء .

ولهذا كانت مهمة رسل الله كافة فى جميع الأعصار ، هى تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق ، وكان نداؤهم الأول إلى قومهم : ﴿ **أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل:٣٦] . ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾[١] .

ومن هنا عَنِى كتاب الله الخالد ـ القرآن الكريم ـ فى الدرجة الأولى ـ بالدعوة إلى توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، والاستعانة والتوكل والإنابة . لا بإثبات وجوده سبحانه ، فإن هذا الوجود ـ على وجه عام ـ مسلَّم به ومفروغ منه ، ولا يجادل فيه إلا قلة مغمورة فى كل عصر ، لا يُقام لها وزن ، ولا تُسمع لها دعوى .

ولقد قرأتُ لبعض الملاحدة الذين اشتهروا بالشك فى الدين والتشكيك فيه ، كلمات عجيبة ، يطالب فيها قراءه ألا يُصدِّقوه إذا كتب هو نفسه وبقلمه ما ينفى عنه الإيمان ، أو يخلع عليه الإلحاد .

يقول : « لو أردتُ من نفسى وعقلى أن يشكا لما استطاعا ، ولو أرادا منى أن

---

(١) ذكر القرآن هذا القول على لسان نوح وهود وصالح وشعيب فى سورة الأعراف الآيات: ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ ، وقد تكرر معناه فى عدة سور

أشك لما استطعت . ولو أنى نفيت إيمانى بالقول لما صدَّقتُ أقوالى ، فشعور أقوى من كل أقوالى ! ماذا لو أن إنساناً قال : إنه لا يحب نفسه أو أنفسنا أو لا يحب الحياة ، فهل تصدقه؟ أو هل يصدق هو كلامه؟ هل يمكن أن ننفى إحساسنا بها بالكلام ؟ إن الحقائق الكبيرة لا تسقطها الألفاظ ، كذلك الإيمان بالله والأنبياء والأديان من الحقائق القوية التى يمكن أن تضعفها أو تشك فيها الكلمات التى قد تجىء غامضة أو عاجزة لأن فورة من الحماس قد أطلقتها .

إن إيمانى يساوى : أنا موجود إذن أنا مؤمن ـ أنا أفكر إذن أنا مؤمن ـ أنا إنسان إذن أنا مؤمن» !

والذى قال هذه الكلمات سوَّد بعدها صفحات كثيرة كلها كفر وشك وضلال بعيد . ولكن هذا الاعتراف الذى سجله بهذه الصراحة وبهذه القوة ، يدل على أن الإيمان ـ كما قلنا ـ فطرة أصيلة لا تُقاوَم ولا تُهزَم .

والذى يعنينا هنا أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش من غير إيمان ، ولا أن يحيا من غير إله يُعظِّمه ويُقدِّسه ، ويخافه ويرجوه ، ويعبده ويتوكَّل عليه . وإن لم يسم معبوده إلهاً ، ولم يسم الخضوع له عباده .

وإنى آسى أشد الأسى لأولئك المساكين الذى صادروا فطرتهم وغلظ حجابهم، وأظلمت قلوبهم فلم تنفذ إليها أشعة الإيمان .

أُولئك الأشقياء المطموسين الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا هُدى ولا كتاب منير .

إنى آسى لهؤلاء مرتين ..

آسى لهم لأنهم دخلوا الحياة ثم خرجوا منها ، ولم ينعموا بأطيب ما فيها وأعظم ما فيها وهو الإيمان .

إنهم بؤساء محرمون حقاً . إن الناس يقولون عن الإنسان إذا فاته شىء مهم من مسرات الدنيا : ضاع نصف عمره . فكيف بمن فاته روح الحياة ، وحياة الروح؟ كيف بمن حرم قلبه بشاشة الإيمان ؟

لقد خسر المساكين أنفسهم ، خسروا وجودهم ، خسروا الحياة وما بعد الحياة، خسروا الخلود ، خسروا كل شىء، لأنهم خسروا الإيمان ، وما أصدق ما ورد

في بعض الآثار الإلهية عن الله تعالى أنه يقول لعبده : « عبدى ؛ اطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدتَ كل شىء ، وإن فُتُّكَ فاتك كل شىء » .

ورحم الله العبد الصالح الذى قال : « إلهى ؛ ماذا وجد مَنْ فقدك ؟ ! وماذا فقد من وجدك ؟ ! لقد خاب من رَضِىَ دونك بدلاً ، وخَسِرَ من بغى عنك حولاً » .

ثم آسى لهؤلاء الملاحدة المحرومين مرة أخرى ، حين أراهم خلعوا رداء العبودية لله ، فوقعوا فى العبودية لغير الله .

لقد ظن هؤلاء فى أنفسهم، وزعموا لغيرهم، أنهم « تحرروا » من كل عبودية، وأنهم نبذوا الخضوع للإله نبذ النواة، وأطرحوا الإيمان بالرب وراء الظهور.

وكذبوا . فالواقع أنهم استبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير ، استبدلوا بالعبودية للخالق ، العبودية للمخلوق ، واستبدلوا بالإله الواحد آلهة شتَّى واتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .

فلا واحد منهم إلا هو عبد لأكثر من سيد ، وخاضع لأكثر من إله ، فهمه شعاع ، وقلبه أوزاع .

أين هذا من المؤمن الذى رفض كل الآلهة الزائفة من حياته ، وحطم كل الأصنام من قلبه ، ورضىَ بالله وحده رباً ، عليه يتوكل ، وإليه ينيب ، وبه يعتصم، وإليه يحتكم ، فلا يبغى غير الله ربًّا ولا يتخذ غير الله ولياً ، ولا يبتغى غير الله حكماً؟

فليت شعرى أى الفريقين خير مقاماً ، وأهدى سبيلاً ، من عرف الله فلم ينحن لأحد سواه ، أم من جحد الله فصار عبداً لأكثر من إله ؟ ﴿ **أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ [يوسف : ٣٩] ؟ .. ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر : ٢٩] .

تمثل الآية المشرك بعبد يملكه أكثر من سيد ، وهم شركاء متشاكسون ، كل يريد منه غير ما يريده الآخر ، ويوجهه إلى غير وجهته ، فهو حائر مُعذَّب بين إرضاء هذا وذاك .

أما المؤمن فمثله مثل عبد خالص لرجل واحد ، ولا شركة فيه ولا مشاكسة ، فهو يعرف سيده ، ويعرف ما يُرضيه ، وكيف يُرضيه .

وإذا كانت الآية في شأن المشرك والموحِّد ، فقد أثبت الواقع أن كل ملحد مشرك ، وإن كان الفرق أن المشركين يعبدون مع الله آلهة أخرى ، والملحدون يعبدون من دون الله آلهة شتَّى .

● **اهتداء المؤمن إلى سر وجوده :**

إن في أعماق كل إنسان أصوتاً خفية تُناديه ، وأسئلة تُلح عليه منتظرة الجواب الذي يذهب به القلق ، وتطمئن به النفس . ما العالَم ؟ ما الإنسان ؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ أى مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتنا بهذا الخلود ؟

هذه الأسئلة التي ألحت على الإنسان من يوم خُلق ، وستظل تلح عليه إلى أن تُطوى صفحة الحياة ، لم تجد ـ ولن تجد ـ لها أجوبة شافية إلا في الدين .

الدين وحده هو الذي يحل عُقدة الوجود الكبرى ، وهو المرجع الوحيد الذي يستطيع أن يُجيبنا عن تلك الأسئلة بما يُرضى الفطرة ، ويُشفى الصدور .

والإسلام ـ خاصة ـ خير دين أجاب عن هذه الأسئلة إجابة شافية ، تُرضى الفطرة النيرة ، والعقل السليم ، بل إجابة تنبع من أعماقهما ، بل أعلن القرآن أن هذا الدين هو الفطرة الأصيلة نفسها : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ [الروم : ٣٠] فلو تُركت الفطرة الإنسانية ونفسها بلا مؤثر خارجي، لانتهت إلى الإسلام نفسه. وفي هذا جاء الحديث الصحيح عن رسول الإسلام : « كل مولود يُولد على الفطرة، وإنما أبواه يُهودانه أو ينصرانه، أو يُمجسانه » .

تقول الفطرة والعقل : إن الناس لم يخلقوا من غير شيء ، ولم يَخلُقوا هم أنفسهم ، ولم يَخلُقوا مما حولهم : ذرَّة في الأرض أو السماء ، ويقول القرآن : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦]

وتقول الفطرة والعقل : لا بد - إذن - من خالق لهذا الإنسان العجيب .

ولهذا الكون العريض ، ولا بد أن يكون هذا الخالق واسع العلم ، بالغ الحكمة ، نافذ المشيئة ، عظيم القُدرة ، ويقول القرآن : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٢-٦٤] .

وتقول الفطرة والعقل : إن هذا الخالق الحكيم لا بد أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون ، ووضع الإنسان فيه غاية وحكمة ، وتعالت حكمته أن يكون خَلَقَ هذا كله عبثاً . ويقول القرآن : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩] .

وهذا الحق الذي به خُلقَت السموات والأرض هو ما يستشفه العقل ، وتحس به الفطرة - وإن يكن إحساساً غامضاً - أن لهذا الإنسان في الوجود رسالة ، وأن وراء هذه الحياة - حياة الابتلاء والفناء - حياة أخرى ، هي الغاية وإليها المنتهى ، ويُجزى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، حتى لا يستوي الخبيث والطيب ، والبر والفاجر ، وهذا ما تقتضيه الحكمة . ويقول القرآن : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٧-٢٨] ؟ . .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾

[المؤمنون: ١١٥]

وتشعر الفطرة والعقل أن لهذا الخالق العظيم ـ بحكم خلقه لعباده ، وإمدادهم بنعَمٍ لا تُحصى ـ حقاً عليهم : أن يُعرف فلا يُجحد ، ويُشكر فلا يُكفر، ويُطاع فلا يُعصى ، ويُفرد بالعبادة فلا يُشرك به ، وينادى القرآن الناس جميعاً :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[البقرة: ٢١-٢٢]

ويُبيِّن القرآن الغاية من خلق السموات والأرض عامة ، ومن خلق الجن والإنس خاصة ، فيقول : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ [الطلاق: ١٢] ..

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧] ..

بهذه الأجوبة القرآنية اهتدى المؤمن إلى سر وجوده ، ووجود العالَم كله . لقد عرف الله فعرف به كل شيء ، وحل به كل لغز ، واهتدى به إلى كل خير . فالعالَمَ مملكة الله ، وكل ما فيه من آثار رحمة الله ، والإنسان خليفة الله ، خُلقَ لعبادة الله ، وتحمل أمانة الله ، والحياة هبة من الله ، والموت قَدَرٌ من الله ، والدنيا مزرعة لطاعة الله ، والآخرة موعد الحصاد والجزاء من الله ، والسعيد مَن اهتدى بهدى الله ، والشقى مَن أعرض عن ذكر الله .

والإنسان مبتلَى ومسؤول فى هذه الدار الفانية ، ليُصقَل ويُعَد للخلود فى تلك الدار الباقية ، والموت هو القنطرة التى تصل ما بين الدارين .

إن الذى أفنى الفلاسفة فيه أعمارهم ، وأذابوا فيه شموع حياتهم ، دون أن

يجتنوا ثمرة تُشبع جوعهم الفكرى ، قد حصَّله المؤمن فى دعة وهدوء . فعرف : من أين جاء ؟ ولمَ جاء ؟ وإلى أين يذهب ؟ ولمَ يحيا ؟ ولمَ يموت ؟ وماذا ينتظره هناك ؟ عرف ذلك من مصدره الذى لا يضل ولا ينسى ، من وحى الله عز وجل . ومَن عرف حقيقة الوجود من رب الوجود ، فقد هُدىَ إلى صراط مستقيم . حضرت الوفاة بعض الملاحدة من الفلاسفة المتشككين ، فهاله الموت وما بعده . فأنشد يقول :

لعمرى ما أدرى - وقد أذن البلى ... بعاجل ترحالى - إلى أين ترحالى ؟

وأين محل الروح بعد خروجه ... عن الهيكل المنحل ، والجسد البالى ؟

وبلغ ذلك بعض الصالحين ، فقال :

وما علينا من جهله ؟ إذا كان لا يدرى إلى أين ترحاله ؟ فنحن ندرى إلى أين ترحالنا وترحاله ، قال تعالى : ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [الانفطار:١٣-١٤] ..

لقد جاء الدين بما يكمل الفطرة ، ويأخذ بيد العقل ، ولم يجئ بما يصادم الفطرة أو يناقض العقل .

ما أحست به الفطرة فى غموض ، جاء الدين فبيَّنه أحسن بيان وأتمه ، وما اهتدى إليه من العقل فى إجمال واشتباه جاء الدين ففصَّله أحسن التفصيل ، ومحا عنه الاشتباه ، ونفى أوهام العقل ، وأغاليط الحس ، ووضَّح الغاية ورسم الطريق .

والفطرة ليست تفكيراً خالصاً ، ولا شعوراً محضاً ،إنها مزيج من التفكير والشعور ، والدين قد جاء يخاطب الفطرة كلها . يخاطب التفكير والشعور معاً . يخاطب العقل والقلب جميعاً . والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده فى الوصول إلى عقيدة سليمة راسخة ، وفكرة كلية واضحة تفسر هذا الوجود ، وتحل ألغازه، قد جاوزوا بالعقل حدوده واختصاصه ، وأهملوا جانباً هاماً فى الفطرة الإنسانية هو جانب الشعور والوجدان ، جانب القلب . كما أغلقوا على أنفسهم بابا واسعا ما كان أحوجهم إليه ، وما أضل سعيهم بغيره هو باب الوحى .

إن العقل ـ مهما أوتى من الذكاء والقدرة على التجربة والقياس والاستنتاج ـ محدود بحدود الطاقة البشرية ، مقيَّد بقيود المكان والزمان والوراثة والبيئة ، فلا غِنى له أبدا عن سند ومعين ، يسدده إذا أخطأ ، ويهديه إذا ضل ، ويرده إلى الصواب إذا شرد ، وهذا السند هو الوحى ، الذى هو أساس الدين .

إن الوحى قد أراح الإنسان من عناء البحث فيما يبدد طاقته دون الظفر بما يُشبع ويُغنى، وأعفاه من تجشم رحلات طويلة وشاقة ، والسير فى دروب معتمة وملتوية ، لا يدرى إلام تنتهى به ؟ وقدم له ما ينبغى أن يعلمه ـ وما يستطيعه ـ عن مبدأ الوجود ومنتهاه ، وعلته وأسراره ، قدمها إليه خالصة سائغة ، سالمة من جدل المجادلين ، وتعمقات المتلفسفين ، وتخرصات المتكلفين .

وليت شِعرى ما الذى يستطيع أن يعلمه الإنسان عن وجوده هو ، وعن وجود العالَم الكبير من حوله ، وعن صاحب هذا المُلك الكبير ـ سبحانه ـ لو مشى فى الطريق وحده ، دون دليل من وحى الله ؟

إنه سيضرب فى بيداء لا يعرف فيها طريقاً ، ولا يجد فيها غير السراب يحسبه ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ويسبح فى بحار من الظلمات لا يهتدى فيها إلى بر ولا قرار ، كالتى حدثنا الله عنها فى كتابه : ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾[النور : ٤٠] .

أجل حاول كثير من المفكرين فى القديم والحديث أن يحلوا ألغاز الوجود ، ويظفروا بطمأنينة النفس عن طريق الفلسفة البشرية بعيداً عن هدى الله ، ووحى السماء ، فأفلسوا وعجزوا .

قال الفخر الرازى(١) بعد أن حَصَّل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، وطاف بدائرة المعارف الفلسفية والكلامية لعصره : «لقد تأملتُ الكتب الكلامية ،

---

(١) فى كتابه « أقسام اللَّذات » .

والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تروى غليلاً . ولا تشفى عليلاً . ورأيتُ أقرب الطرق طريقة القرآن . . ومن جرَّب مثل تجربتى ، عرف مثل معرفتى » .

وعبر بعضهم عن صرعى الفلسفة والتفلسف فقال :

لقد طفتُ فى تلك المعاهد كلها وسرَّحتُ طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم !

وتمنى أحدهم فى آخر عمره : لو رُزِق إيماناً كإيمان العجائز ! حتى إيمان العجائز لم يظفر به المتفلسفون .

وهكذا أفلست الفلسفات البشرية أن تمنح القلب الإنسانى طمأنينته التى هى أول عنصر لسعادته ، ومحال أن يسعد إنسان يؤرق الشك ليله ، ويكدر القلق نهاره .

وعرف المنصفون أن أهدى السبل وأقربها وآمنها للظفر بالطمأنينة إنما هو سبل الوحى الإلهى المعصوم . إنه «المصل الواقى» من الشك المحطم ، والقلق المفزع ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الزخرف:٤٣] ﴿ **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ** ﴾ [النمل:٧٩] . .

والحق المبين هو الذى اتضحت أعلامه واستبان طريقه ، وزال عنه الغموض واللَّبس والاختلاف والريب .

وشعور الإنسان واعتقاده أنه على ﴿ **الْحَقِّ الْمُبِينِ** ﴾ وأنه ﴿ **عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ شعور لا يظفر به غير المؤمن بوحى الله وهُداه .

أما الذى شرد عن هدى الله ورسالاته ، فهو ﴿ **كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى** ﴾ [الأنعام:٧١] . .

إن الوحى وحده هو السبيل الفذَّة للوصول إلى اليقين فى قضايا الوجود الكبرى . وبغير الوحى لن يكون يقين ، وبغير اليقين لن تكون سكينة ، وبغير السكينة لن تكون سعادة .

بالوحى يبلغ المؤمن درجة علم اليقين ، وقد يرتقى روحه ويشف ويرف حتى يشارف عين اليقين أو الحق اليقين .

وفى هذا قال بعض السلف : لو كُشِف الغطاء ما ازددتُ يقينا ! ذلك لأنه آمن بما أخبر به الوحى إيماناً تجلَّت به حقائق الوجود لعين قلبه ، كأنه يراها بعينى رأسه ، ويشهدها حاضرة ظاهرة ، كالشمس فى الضُحى ، ليس دونها سحاب ولا ضباب .

قال بعض السَلَف : «رأيتُ الجنة والنار حقيقة» .

قيل له : وكيف رأيتهما وأنت فى الدنيا ؟

قال : « رآهما رسول الله ﷺ فرأيتهما بعينه ، ورؤيتى لهما بعين رسول الله ﷺ آثر عندى من رؤيتهما بعينى ، فإن بصرى قد يزيغ عند رؤيتهما أو يطغى ، أما بصر الرسول فما زاغ وما طغى » .

● **نجاة المؤمن من عذاب الحيرة والشك :**

وبهذا الإيمان البسيط العميق الذى جاء به الوحى وأيَّده العقل ، واقتضته الفطرة ، وشهد له كل سطر ـ بل كل كلمة فى كتاب الوجود المفتوح ـ سلم المؤمن من الشك والاضطراب ، واستراح من البلبلة والحيرة الذهنية والنفسية ، التى يتجرع غصصها الجاحدون المرتابون .

بهذا الإيمان الواضح المريح ، حل المؤمن ألغاز الوجود الكبرى ، حين عرف مبدأه ومصيره وغايته ومهمته ، بل عرف مبدأ الوجود كله ومنتهاه وغايته وهدفه . فانحلت عُقد الشك من نفسه ، وزالت علامات الاستفهام الكبيرة من حياته .

لقد عرف أن له رباً ـ هو رب كل شىء ـ هو الذى خلقه فسوَّاه ، وكرَّمه وفضَّله ، وجعله فى الأرض خليفة ، وكفل له رزقه ، وسخَّر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، فاطمأن إلى ربه ، ولاذ بجواره واعتصم بحبله ، فأوى بهذا الإيمان إلى ركن شديد ، ولاذ بقرار مكين ، واستمسك بالعُروة الوُثقى لا انفصام لها .

وعرف أن هذه الحياة القصيرة التى يعيشها الناس ممزوجة الخير بالشر ،

والعدل بالظلم ، والحق بالباطل ، واللّذة بالألم ، ليست هى الغاية ، ولا إليها المنتهى . إنما هى مزرعة لحياة أُخرى هى خير وأبقى . تُجزَى فيها كل نفس بما كسبت ، وتخلد فيما عملت ، فاستراح المؤمن بذلك من التساؤل العريض عن الحياة والموت ، وما سرهما ؟ وماذا بعدهما ؟ استراح المؤمن من ذلك حين علم وأيقن أنه خُلِقَ للخلود الأبدى ، وإنما ينقله الموت من طَور إلى طَور ، أو من دار إلى دار .

وعرف المؤمن أنه لم يُخلَقْ فى هذه الحياة عبثاً ، ولم يُترك سُدى ، فبعث الله إليه رسله بالبينات ، هُداةً ومعلمين ، مبشرين ومنذرين ، ليهتدى الناس إلى الحق، ويستبينوا معالِم الطريق ، ويعرفوا ما يُرضى الله فيتبعوه ، وما يُسخطه فيتقوه ، وليُقيموا بين الناس موازين القسط ، ويحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وليكونوا أمثلة رفيعة ـ تحس وترى ـ يتخذها الناس أُسوة حسنة لصوالح الأعمال ، ومكارم الأخلاق .

وعرف المؤمن أنه ليس غريباً على الكون الكبير من حوله ، ولا معزولاً عنه . إنه بإيمانه لم يعد وحده . إن الكون كله معه ، ففطرة هذا الكون هى الإيمان . هى التسبيح والسجود للرب الأعلى ، الذى خَلَقَ فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى **﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾** [الإسراء: ٤٤] .

إن هذه المكاسب الهائلة التى غنمها المؤمن ، واجتنى ثمارها ، وقطوفها الدانية، لا يُقدِّرها حق قدرها إلا من حرمها، أو تأمل بعين بصيرته حال من حرمها.

فالجاحدون بالله، أو المرتابون فيه، وفى لقائه يوم الحساب، يحيون حياة لا طعم لها ولا معنى . حياة كلها قلق وحيرة ، كلها علامات استفهام . كلها أسئلة لا تجد لها عندهم جواباً .

إنهم لا يُوقنون بشىء يطمئنون إليه . ويستريحون له فى قضية وجودهم أنفسهم ، ووجود الكون كله من حولهم . من أين جاءوا ؟ ومَن جاء بهم ؟ ولماذا

جاء بهم ؟ وإلى أين يذهبون بعد هذه المرحلة القصيرة ، التى لم يفهموا لها سراً ، ولم يعرفوا لها غاية ؟ وما هذا الكون ؟ وما مبدؤه ؟ وما غايته ؟ وما علاقتهم به ؟

إن عقولهم المحدودة لا تستطيع أن تُجيبهم إجابة تشفى الصدور ، وتنقع الغلة ، وتمحو بنورها الشك والحيرة والاضطراب .

ربما يهتدون فى يوم إلى جواب عن هذه الأسئلة الحائرة المحيرة ، ثم يعودون فى اليوم الثانى فينقضون ما أبرموا ، ويحلون ما عقدوا ، ويتبرأون مما قالوا .

ولا يثبتون على قرار ، ولا يستقرون على فكرة ، ولا يدومون على وجهة أو طريق :

كريشة فى مهب الريح طائرة   لا تستقر على حال من القلق

نرى ذلك قديماً فى مثل قول ابن الشبل البغدادى فى قصيدته الرائية :

بربك أيها الفلك المدار   أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟

إلى أن يقول متسائلاً عن علة هذا الوجود :

فماذا الامتنان على وجود   لغير الموجودين به الخيار ؟
وكانت أنعماً لو أن كوناً   نُخيَّر قبله أو نُستشار ؟

وما دام وجوده قد تم بغير استشارة له ، ولا اختيار منه ، فليعلن سخطه على هذا الوجود الذى ـ فى نظره ـ إلا بلاء جرَّته عليه شهوة عارضة لأُمه وأبيه ، وفى هذا يقول :

قبَّح الله لذَّة لأذانا   نالها الأمهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألف   الفقد فإيجادنا علينا بلاء

وفى مثل ذلك يقول عمر الخيَّام :

لبستُ ثوب العمر لم أُسْتَشر   وحرتُ فيه بين شتَّى الفكر
وسوف أنضو الثوبَ عنى ولم   أدرِ لماذا جئتُ ؟ أين المفر ؟

فقد لبس ثوب الحياة دون أن يُستشار ، ويُؤخذ رأيه ، كأنه لو استُشير لكان رأيه وتدبيره لنفسه أفضل من تدبير ربه له . ثم هو يخلع هذا الثوب بالموت ، ولا يدرى شيئاً عن سر وجوده ، ولا ما بعد وجوده .

ويقول أبو العلاء المعرى فى فترات شكه وحيرته :

تفارقُ العيش لم تظفر بمعرفة أى المعانى بأهل الأرض مقصود ؟

لم يعطنا العلم أخباراً يجىء بها نقل ولا كوكب فى الأرض مرصود

ويقول :

أصبحتُ فى يومى أُسائل عن غدى متحيراً عن حاله متندسا

أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادى أن أظن وأحدسا

ويقول :

سألتمونى فأعيتنى إجابتكم من ادعى أنه دار فقد كذبا

وهذا الشك الذى حرم معه اليقين والاستقرار على رأى ، قد كدر عليه الحياة، وجعله ينظر إليها نظرة متشائمة سوداء . فتسمعه يقول :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ، ولكن لا يُعاد له سبك

بل يمتنع عن الزواج حتى لا يجنى على ذرِّيته ، كما جنى عليه أبوه وأُمه :

وأرحت أولادى فهم فى نعمة الـ ـعدم التى فضلت نعيم العاجل

وتغلب عليه النظرة الجبرية للإنسان فيقول :

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياتى ، فهل لى بعدُ تخيير ؟

ويقول :

جئنا على كُره ونرحل رغما ولعلنا ما بين ذلك نُجبر

وحديثاً قال إيليا أبو ماضى فى قصيدته التى سماها « الطلاسم » :

جـــــئتُ لا أعـلـم مـن أيـن ، ولـكـنـى أتـيـتُ
ولـقـد أبصـرتُ قُـدَّامى طريقـاً فـمـشـيتُ
وسـأبقـى سـائراً إن شـئتُ هذا أم أبيتُ
كـيف جـئتُ ؟ كـيف أبصـرتُ طريقى ؟

لست أدرى !

أجـديدٌ أم قـديمٌ أنا فى هذا الوجـود ؟
هل أنا حـر طليق ، أم أسـير فى قـيود ؟
هل أنا قـائد نفـسى فى حـياتى أم مـقـود ؟
أتمـنـى أنـنـى أدرى ، ولـكـن . . . .

لست أدرى !

وطريقى مـا طريقى ، أطويلٌ أم قـصـير ؟
هل أنا أصـعـد ، أم أهبط فـيـه وأغـور ؟
أأنا السـائر فى الدرب أم الدرب يسـير ؟
أم كـلانا واقف ، والدهر يجـرى ؟

لست أدرى !

أتُرانى قـبلمـا أصـبـحتُ إنسـاناً سـويا
كنت مـحـواً ومـحـاولاً أم تُرانى كنت شـيـا ؟
ألهـذا اللُّغـز حل ، أم سـيـبـقى أبديا ؟
لـسـتُ أدرى . . . ولمـاذا لـسـتُ أدرى ؟ ؟

لستُ أدرى !

إن هذا الشك والاضطراب والقلق الذى يتقلب على جمره الحائرون والمرتابون فى وجود الله وحكمته ، وعدله ورحمته ، وجزائه فى الآخرة ، ووحيه إلى رسله ـ

هذا الشك ليس شيئاً هيناً ، إنه عذاب أليم ، وكوَّة من الجحيم فُتحت على أهله ، تلفحهم بنارها ، وتشوى قلوبهم بحميمها ، وكلما خف لهيبها هبت عليهم عواصف الشك من جديد ، فاشتعلت النار ، ليذوقوا العذاب .

إن هذا القلق أمر لا مناص لهم منه ، إنه سيحرمهم سكون النفس ، وهدوء الضمير . سيقض عليهم مضاجعهم ، ويُنغص عليهم حياتهم ، ويُؤرق عليهم ليلهم ، ويكدِّر عليهم نهارهم ، إنهم يعيشون كما قال الله : ﴿ **مَعِيشَةً ضَنكاً** ﴾ [طه:١٢٤]

● **وضوح الغاية والطريق عند المؤمن :**

غير المؤمن يعيش فى الدنيا تتوزَّعه هموم كثيرة ، وتتنازعه غايات شتَّى ، هذه تميل به إلى اليمين ، وتلك تجذبه إلى الشمال ، فهو فى صراع دائم داخل نفسه، وهو فى حيرة بين غرائزه الكثيرة ، أيها يُرضِى . غريزة البقاء ، أم غريزة النوع، أم المقاتلة ، أم . . . أم . . . إلخ .

وهو حائر مرة أُخرى بين إرضاء غرائزه وبين إرضاء المجتمع الذى يحيا فيه ، وهو حائر مرة ثالثة فى إرضاء المجتمع ، أى الأصناف يُرضيهم ، ويُسارع فى هواهم ، فإن رضا الناس غاية لا تُدرَك .

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضباناً على لئامها

والعكس بالعكس طبعاً ، إذا رَضِىَ اللئام غَضِبَ الكرام .

وهنا يذكرون الحكاية المشهورة ، حكاية الشيخ وولده وحماره : ركب الشيخ ومشى الولد وراءه ، فتعرض الشيخ للوم النساء ، وركب الولد ومشى الشيخ ، فتعرض الولد للوم الرجال ، وركبا معاً فتعرضا للوم دعاة الرفق بالحيوان . ومشياً معاً والحمار أمامهما ، فتعرضا لنكت أولاد البلد ، واقترح الولد أن يحملا الحمار ليتسريحا من لوم اللائمين ، فقال له الأب الشيخ : لو فعلنا لأتعبنا أنفسنا ، ولرمانا الناس بالجنون حيث جعلنا المركوب راكباً . يا بُنىّ لا سبيل إلى إرضاء الناس.

ومَن فى الناس يُرضى كل نفس وبين هوى النفوس مدى بعيد ؟

وقد استراح المؤمن من هذا كله، وحصر الغايات كلها فى غاية واحدة عليها يحرص وإليها يسعى، وهى رضوان الله تعالى، لا يبالى معه برضا الناس أو سخطهم، شعاره ما قال الشاعر :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضابُ
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالَمين خرابُ
إذا صح منك الود فالكل هَيِّنٌ وكل الذى فوق التراب ترابُ

كما جعل المؤمن همومه هماً واحداً ، هو سلوك الطريق الموصل إلى مرضاته تعالى والذى يسأل الله فى كل صلاة عدة مرات أن يهديه إليه ، ويوفقه لسلوكه : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الفاتحة:٦] . . وهو طريق واحد لا عوج فيه ولا التواء ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام:١٥٣] .

وما أعظم الفرق بين رجلين ، أحدهما عرف الغاية ، وعرف الطريق إليها ، فاطمأن واستراح ، وآخر ضال ، يخبط فى عماية ، ويمشى إلى غير غاية ، لا يدرى إلام المسير ؟ ولا أين المصير ؟ ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِباً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِياً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ [الملك:٢٢] . .

واستهان المؤمن فى سبيل هذه الغاية بكل صعب ، واستعذب كل عذاب ، واسترخص كل تضحية ، بل قدَّمها راضياً مستبشراً ، ألا ترى إلى خبيب بن زيد وقد صلبه المشركون ؟ وأحاطوا به يُظهرون الشماتة فيه ، يحسبون أنه ستنهار أعصابه ، أو تضطرب نفسه ، ولكنه نظر إليهم فى يقين ساخر ، وأنشد يقول :

ولستُ أبالى أُقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله ، وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

ألا ترى إلى الرجل من الصحابة ومن تبعهم بإحسان كيف كان يخوض

عباب المعركة ، والموت يبرق ويرعد ، وهو يقول : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ [طه : ٨٤] .

ألا تسمع لأحدهم وقد نفذ الرمح في صدره حتى وصل إلى ظهره ، فما كان منه إلا أن قال : فزتُ ورب الكعبة .

وفي غزوة الأحزاب ، وقد ابتُلِيَ المؤمنون ، وزُلزلوا زلزالاً شديداً إذ جاءهم الأعداء من فوقهم ومن أسفل منهم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وظن الناس بالله الظنون ، وكشف المنافقون النقاب ، فقالوا : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً .

في هذا الجو الرهيب كان موقف المؤمنين هو موقف السكينة والطمأنينة الذي عُهِدَ منهم ، والذي سجله الله لهم في كتابه : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

ما الذي وهب هؤلاء المجاهدين السكينة ، والقتال مستعر الأوار ؟ ومنحهم الطمأنينة والموت فاغر فاه ؟ إنه الإيمان وحده ، وصدق الله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [الفتح : ٤] .. ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

[الرعد : ٢٧ : ٢٨]

لقد عرف المؤمن الغاية فاستراح إليها ، وعرف الطريق فاطمأن به . إنه طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين . إنه ﴿ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ﴾ .. الذي يهدي إليه محمد ﷺ ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾

[الشورى : ٥٢-٥٣]

وبهذا الصراط المستقيم ، كان المؤمن فى أخلاقه وسلوكه مطمئناً غير قلق ، ثابتاً غير متقلب ، واضحاً غير متردد ، مستقيماً غير متعرج ، بسيطاً غير معقد ، لا يحيره تناقض الاتجاهات ، ولا يعذبه تنازع الرغبات ، ولا يحطم شخصيته الصراع الداخلى فى نفسه . أيفعل أم يترك ؟ أيفعل هذا أم ذاك ؟ إن له مبادئ واضحة ، ومعايير ثابته ، يرجع إليها فى كل عمل وكل تصرف ، فتعطيه الإشارة ، وتفتح له الطريق فيقدم ، أو تضيء له النور الأحمر ، فيعرف الخطر ويُحجم ، وحسبه كتاب ربه هادياً ، ورسوله معلماً : ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [المائدة : ١٥-١٦] ..

وإن له ــ مع ذلك ــ لضميراً يقظاً ، وقلباً نيراً ، يستفتيه فى المتشابهات فيفتيه، ويرجع إليه فى الملمات فيهديه ، فهو كالإبرة « الممغنطة » تعرف اتجاهها دائماً وتشير إليه : « واستفت قلبك ، وإن أفتاكَ الناس وأفتوكَ وأفتوك » .

المقياس الخُلُقى عند المؤمن واضح وثابت ينحصر فى رضا الله وطاعة أمره ، واجتناب نهيه ، معتقداً أن فى ذلك سعادة أُولاه وأُخراه ، وخيره وخير البشرية جميعاً . فهو عند الله وقَّاف . وهو لأمر ربه مسارع مطواع ، مهما يكن فى ذلك من خسران منفعة عاجلة ، أو قهر لشهوة طاغية ، أو مقاومة لعاطفة قوية أو غريزة قاهرة أو عادة غالبة .

هذا هو شأن الإيمان القوى الصادق ، وهذه بعض ثمراته .

وفى القصة التالية العجيبة ــ لأب وابن مؤمنَين ــ مثل رائع لليقين الذى لا يعرف الشك ، والمسارعة التى لا تعرف التردد أو الحيرة أو التخاذل فى أمر الله .

شيخ كبير ، اشتاق إلى الولد ، ودعا ربه ، فأوتيه على الكِبَر ، وبشَّرته به السماء : ﴿ **بِغُلَامٍ حَلِيمٍ** ﴾ فتعلق به قلبه ، وأفرغ فيه كل ما لدية من حنان وحب، وظل ينمو فينمو معه حب أبيه ، ويشب فيشب معه الأمل والرجاء فيه ، وإذا الحكمة الإلهية تأبى إلا أن تصهرهما فى امتحان قاس عسير . أن يُقَرِّب الأب إلى الله قرباناً ، فيذبح ولده ، ويذبح معه حبه ورجاءه وأمله . فهل توقَّف الوالد عن

الأمر ؟ أو حتى تردد بين نداء العاطفة ونداء الإيمان ؟ بين صوت الوحى من فوقه ، وصوت الأبوة ينبثق من حناياه ؟ وهل تمرد الابن على أمر يتعلق برقبته ؟ أو حتى اصطرعت فى نفسه العوامل المتضادة من حب الحياة ، والامتثال لأمر الله ؟

كلا ، لقد كان يقينهما أكبر من نوازع النفس ، وعوامل التردد ، فأسلم الوالد ولده . وأسلم الولد عنقه .

تلك هى قصة إبراهيم الخليل ، وابنه إسماعيل عليهما السلام .

وليس هناك أصدق ولا أروع من تصوير القرآن لهاتين النفسيتين المؤمنتَين ، ومدى طمأنينتهما فى أحلك ساعات الشدة ، ومبلغ الثبات الخُلُقى الراسخ الذى بدا فى تضحية الأب العظيم ، وصبر الابن الكريم .

قال تعالى فى شأن إبراهيم وولده إسماعيل : ﴿ **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الصافات : ١٠١-١١١]

وفى هذا الختام سر القصة كلها ، ومفتاح ما سجلته من بطولة وفدائية ، ﴿ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ..

العبودية لله وحده ، والإيمان به وحده ﴿ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الصافات : ١١١]

العبدوية لله تعنى : التحرر من التبعية لكل من سواه وما سواه ، فلا خضوع لمخلوق فى الأرض أو فى السماء . حتى الشيطان الوسواس الخناس ليس له سبيل على عباد الله ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ [الإسراء : ٦٥] ..

العبودية لله تعنى : الانقياد لحكمه سبحانه ، مع رضا النفس ، وتسليم

القلب دون أدنى حرج أو ارتياب ، لثقته بأن تدبير الله له خير من تدبيره لنفسه ، وأنه تعالى أرحم به من أمه وأبيه ، وأنه سبحانه أعلم بما يصلحه ويزكيه .

والمؤمن الصادق هو الذى عرف لهذه العبودية حقها ، فوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وحطم الأصنام كلها من قلبه ، ورفض الطواغيت كلها من حياته ، ولم يرض غير الله رباً ، ولم يتخذ غير الله ولياً ، ولم يبتغ غير الله حكماً، اتضحت لعين بصيرته الوجهة ، واستقام أمامها الطريق ، لا لَبْسَ ولا غموض ، ولاعوج ولا أمت : ﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَباً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الأنعم :١٦١-١٦٤] ..

وبهذا الاتجاه الواضح انحلت العُقَد فى نفس المؤمن وفى حياته . فقد عرف الطريق فسلكها على بصيرة ، غير هيَّاب ولا متردد ، ولا قلق ولا مرتاب . طريق الرجوع إلى أمر الله والاستسلام الكامل لحكم الله ، واليقين بأن خيرى الدنيا والآخرة فى اتباعه والرضا به ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [الأحزاب :٣٦] .. ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [النور :٥١] ..

أجل هم المفلحون :مفلحون فى الآخرة بدخول الجنات ورضوان من الله أكبر. ومفلحون فى الدنيا بما أنعم الله عليهم من سكينة الأنفس ، وطمأنينة القلوب ، وانشراح الصدور .

● أنس المؤمن بالوجود كله :

والمؤمن يعيش موصولاً بالوجود كله ، ويحيا فى أنس به ، وشعور عميق بالتناسق معه ، والارتباط به ، فليس هذا الكون عدواً له ، ولا غريباً عنه ، إنه مجال تفكره واعتباره ، ومسرح نظره وتأملاته ، ومظهر نِعم الله وآثار رحمته .

هذا الكون الكبير يخضع لنواميس الله كما يخضع المؤمن ، ويُسبح بحمد الله كما يُسبِّحُ المؤمن .

والمؤمن ينظر إليه نظرته إلى دليل يهديه إلى ربه ، وإلى صديق يؤنسه فى وحشته . .

وبهذه النظرة الودود الرحبة للوجود ، تتسع نفس المؤمن ، وتتسع حياته ، وتتسع دائرة الوجود الذى يعيش فيه .

فليس هناك أوسع من صدر المؤمن وقلبه الذى وسع العالَمين ، المنظور وغير المنظور ، عالَم الشهادة وعالَم الغيب ، ووسع الحياتين : الدنيا والآخرة ، حياة الفناء، وحياة الخلود ، ووسع الوجودين : الوجود المحدَث الفانى ، والوجود الواجب الباقى ، الوجود الأزلى الأبدى ، وجود الله جل جلاله .

وليس هناك أضيق من صدر الملحد والشاك فى الله والآخرة ، إن حياته أضيق من سجن ، بل من « زنزانة » فى سجن ، إنه يعيش معزولاً عن الأزل والأبد ، عن الأمس والغد . لا يعرف إلا يومه ، ولا يعرف من يومه إلا لذَّاته المُحسه ، وهو يعيش معزولاً عن الوجود العريض ، لا يرى منه إلا شخصه وشخوصاً محدودة أخرى ، ولا يرى من شخصه إلا جسمه المادى ، ودوافعه الحيوانية .

هذه حقيقة ثابتة ، وسُنَّة ماضية ، منذ أهبط الله آدم وزوجه إلى الأرض ثم قال لهما : ﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً** ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤] . .

فإذا رأيتَ بعض هؤلاء المعرضين عن هدى الله فى بحبوحة من العيش المادى، والنعيم الحسى ، وإذا ضاقت النفس ، وضاق الصدر ، ضاقت المعيشة وضاقت الحياة كلها ، وإذا اتسعت النفس ، اتسعت الحياة . وقديماً قال الشاعر :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق !

إن دائرة الوجود بالنسبة للحيوان دائرة ضيقة محدوة بحدود معدته وكرشة ، وما يملؤها من كلأ ومرعى . ولا التفات إلى ما وراء ذلك .

وقريب من ذلك الطفل ، فوجوده ينحصر فى أمه وثدييها ، فإذا كبر قليلاً اتسع فشمل أباه وإخوته ومسرح لعبة ، فإذا نما شيئاً فشيئاً ، بدأت تتسع دائرة حسه ، ثم انتقل - كلما قارب الرُشد - من المحسوس إلى غير المحسوس . فبدأ يدرك المعانى الكلية والمعقولات المجردة .

فالإيمان بالله وبالغيب هو الذى يرتفع بالإنسان من الحيوانية إلى الإنسانية ، ومن الطفولة إلى الرشد ، لأنه يرتفع بالإنسان المحسوس إلى المعقول ، ومن المنظور إلى غير المنظور ، ومن عالَم الشهادة إلى عالَم الغيب .

إن المؤمن يعيش فى سعة من نفسه وقلبه ، ولو لم يكن فى سعة من عيشه ، فطبيعة الإيمان توسع النفس والقلب والحياة ، لأنه يصل صاحبه بالوجود كله ، ظاهره وباطنه ، عُلويه وسُفليه ، وما يبصر منه وما لا يبصر . ماضيه وحاضره ومستقبله . يصله بالسموات والأرض ومن فيهن . يصله بالملائكة وحملة العرش والقوى الروحية من جنود الله التى لا يعلمها إلا هو ، يصله بحَمَلة النور الإلهى ، وأصحاب الرسالات السماوية من لدن آدم أبى البشر إلى محمد ﷺ ، يصله بالصدِّيقين والشهداء والصالحين من كل أمة ، ومن كل عصر ، يصله بالآخرة والبعث والحساب والجنة النار ، وباختصار : يصله بالوجود ورب الوجود ، الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

النفس المؤمنة نفس رحبة واسعة ، وكيف لا وهى تعيش فى وجود سعته السموات والأرض ، والعرش والكرسى ، والدنيا والآخرة ، والأزل والأبد ؟

والنفس المؤمنة رحبة واسعة لأنها تعيش فى نور يهديها سبيلها ، ويكشف لها من حولها ، ومن شأن النور أن يوسع الدائرة التى يحيا فيها الإنسان على عكس الظلام ، فإن الذى تكتنفه الظُلمة لا يرى ما حوله ولا من حوله . بل لا يرى الشيء وهو بجواره تكاد تلمسه يداه ، بل لا يرى نفسه ، ولا شيء أقرب إليه من نفسه ، فإذا لاح له شعاع خافت بدأ يرى نفسه ، أو شيئاً مما حوله . فإذا قوى هذا النور . وانتشرت أشعته العريضة ، أضاء له دائرة أوسع ، وعلى قدر قوة هذا النور . وقوة البصر عند الإنسان تكون سعة الدائرة التى يدركها البصير .

سئل الرسول ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ** ﴾ [الزمر:٢٢]..

فقال : « إن النور إذا دخل فى القلب اتسع وانفسح » .

فالقلب يتسع وينفسح وينشرح بنور الإيمان واليقين ، كما يضيق وينكمش بظُلمة الإلحاد والشك والنفاق : ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً** ﴾ [الأنعام:١٢٥]..

● **المؤمن يعيش فى معية الله :**

والمؤمن لا يعتريه ذلك المرض النفسى الوبيل ، الذى يفتك بالمحرومين من الإيمان ، ذلك هو مرض الشعور بالوحدة المقلقة ، فيحس صاحبه أن الدنيا مقفلة عليه ، وأنه يعيش فريداً منعزلاً ، كأنه بقية غرقى سفينة ابتلعها اليَّم ، ورمت به الأمواج فى جزيرة صغيرة موحشة يسكنها وحده ، لا يرى إلا زرقة البحر وزرقة السماء ، ولا يسمع إلا صفير الرياح ، وهدير الأمواج .

وأى عالَم أشد على النفس من هذا العالَم ، وأى إحساس أمرُّ من هذا الإحساس ؟ إن أقصى ما يصنعه السجان بالسجين أن يحبسه فى سجن انفرادى (زنزانة) ليحرمه من لذة الاجتماع ، وأنس المشاركة والاختلاط ، فما بالنا بمن وضع نفسه دائماً فى تلك الزنزانة ، وعاش فيها بمشاعره وتصوره وحده ، وإن كانت الدنيا تضج من حوله بخلق الله من بنى الإنسان ؟ !

والمختصون متفقون أن هذا المرض من أخطر أمراض النفس ، لما يجلبه على صاحبه من عزلة وفقدان للثقة بمن يتعاملون معه ، إذ يعتقد أن مَن حوله دونه ، وأنهم يخالفونه فى كل مقوِّمات الحياة ، وأينما التفت لا يجد غير نفسه ، وقد مثل بعضهم حالة المريض بإنسان قد سُجِنَ فى غرفة جميع جدرانها مراء (مرايا) فأينما ينظر لا يجد إلا نفسه ، وأن هذه الغرفة التى سُجِنَ فيها لا أبواب لها ، ولا منافذ بها ، فأين السبيل إلى الهرب منها ؟

فهل يستطيع مثل هذا الإنسان أن يعمل أو ينتج ، أو أن يظل محتفظاً بوعيه

وقدرته على الفهم والتركيز ؟ وهل يمكن لمثله أن يظفر بالسكينة والاطمئنان ؟ الجواب طبعاً : لا .

بل قال المختصون فى علاج هذه الأمراض : إن لهذا المرض النفسى آثاراً عضوية تظهر على جسم صاحبه ، كما تظهر فى حركاته وتصرفاته . فقد يصيبه الدوار ويتصبب عرقه ، وتسرع نبضات قلبه ، كأنه خائف من عدو قاهر ، أو مقدم على موقف عصيب وقد يتخبط فى حركاته ومشيه كأنه يريد الهرب .

ويقول الدكتور « موريس جوبتهيل » مدير إدارة الصحة العقلية بنيويورك : « إن مرض إحساس الإنسان بوحدته لمن أهم العوامل الأساسية للاضطرابات العقلية » .

ولم يدخر الأطباء وعلماء النفس وسعاً فى البحث عن علاج ناجع لهذا المرض ، وبذلوا فى ذلك جهوداً جمة ، وأجروا تجارب كثيرة ، وحاولوا محاولات مخلصة حتى انتهى رأى المنصفين منهم أخيراً إلى أن العلاج الأمثل لهذا المرض هو اللجوء إلى الدين ، والاعتصام بعروة الإيمان الوُثقى ، وإشعار المريض بمعية الله والأنس به .

فهذا الإيمان القوى هو خير دواء لعلاج هذا المرض الخطير ، كما أنه خير وقاية من شره .

قال الدكتور « فرانك لوباخ » العالم النفسى الألمانى : « مهما بلغ شعورك بوحدة نفسك فاعلم أنك لستَ بمفردك أبداً . فإذا كنتَ على جانب من الطريق فسر وأنت على يقين من أن الله يسير على الجانب الآخر » (١) .

واعتقاد المسلم أكبر من هذا وأعمق . إنه يؤمن أن الله معه حيثما كان ، وليس على الجانب الآخر من الطريق ، إن الله سبحانه يقول فى الحديث القدسى : « أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى » ويقول فى كتابه العزيز : ﴿ **فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** ﴾

[محمد : ٣٥]

---

(١) من مقال للأستاذ عبد الرزاق نوفل .

ويقول أديب غربي من كلمة يستقبل به عاماً جديداً : « قلتُ للرجل الواقف على باب العام : أعطني نوراً أستضيء به في ظُلمات الطريق ، قال : ضع يدك في يد الله فإنه يهديكَ سَوَاءَ السبيل » .

إن شعور المؤمن بأن يد الله في يده ، وأن عنايته بجانبه ، وأنه ملحوظ بعينه التي لا تنام ، وأنه معه حيث كان ، يطرد عنه شبح الوحدة المخيف ، ويزيح عن نفسه كابوسها المزعج .

كيف يشعر بالوحدة من يقرأ في كتاب ربه : ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة:١١٥] .. ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [الحديد:٤] .. ؟ إنه لا يشعر إلا بما شعر به موسى حين قال لبني إسرائيل : ﴿ **إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ [الشعراء:٦٢] .. وما شعر به محمد في الغار حين قال لصاحبه : ﴿ **لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة:٤٠]

إن شعور المؤمن بمعية الله وصحبته دائماً يجعله في أُنس دائم بربه ، ونعيم موصول بقُربه ، يحس أبداً بالنور يغمر قلبه ، ولو أنه في ظُلمة اللَّيل البهيم .

ويشعر بالأُنس يملأ عليه حياته وإن كان في وحشة من الخلطاء والمعاشرين ، ينشد ما قاله العبد الصالح يناجي ربه :

إن قلباً أنت ساكنه غير محتاج إلى السُرُجِ
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحُجَجِ

● **المؤمن يعيش في صحبة النبيين والصدِّيقين :**

والمؤمن لا يشعر أنه في عزلة عن إخوانه المؤمنين . إنهم ـ إن لم يكونوا معه في عمله أو مسجده أو داره ـ يعيشون دائماً في ضميره ، ويحيون في فكره ووجدانه ، فهو إذا صلَّى ـ ولو منفرداً ـ تحدث باسمهم ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة:٥] وإذا دعا دعا باسمهم ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الفاتحة:٦] وإذا ذكر نفسه ذكرهم « السلام علينا وعلى عباد الله

الصالحين»[1] وإنه لأوسع مدى من أن يعيش مع مؤمنى عصره وحدهم ، بل إنه ليتخطى الأجيال ، ويخترق العصور والمسافات ، ويحيا مع المؤمنين وإن باعدت بينه وبينهم السنون والأعوام ، ويقول ما قال الصالحون : ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ** ﴾ [الحشر:١٠] .

المؤمن يشعر أنه يعيش بإيمانه وعمله الصالح مع أنبياء الله ورسله المقربين . ومع كل صديق وشهيد وصالح من كل أمة وفى كل عصر : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً** ﴾ [النساء:٦٩] . .

وأى إنسان أسعد ممن يرافق هؤلاء ويرافقونه ؟ إنها ليست مرافقة جسد وصورة ، ولكنها مرافقة روح ووجدان ، وفكر وقلب ، وكفى أنه « معهم » وليس خلفهم ، ولا قريباً منهم . . ولا يحسبن امرؤ من الناس أن مرافقة هؤلاء للمؤمن شىء هين ضئيل ، أو أمر خيالى موهوم ، فإنه لفرق كبير بين إنسان تاريخه هو تاريخ شخصه أو أُسرته ، أو حزبه مثلاً ، فهو قريب القاع ، سطحى الجذور ، وإنسان تاريخه هو تاريخ الإيمان والهُدى من عهد آدم ، تاريخه هو تاريخ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد من أُولى العزم من الرسل ، ومن غيرهم من أصحاب النبوات والرسالات منذ بعث الله رسولاً ، وأنزل كتاباً ، فهو يستلهم هذا التاريخ المؤمن الحافل فى كل ما ينزل به من أحداث ، وما يعرض له من مشكلات ، ومايقف فى سبيله من عوائق ، ويجد فيه الأُسوة والهداية كما يجد فيه السلوى والعزاء ، كما يجد فيه الأُنس والود ، ومن كل ذلك يأخذ الزاد لفكره ، والنور لقلبه ، والمدد لإرادته .

● الصلاة والدعاء من بواعث السكينة :

ومن أسباب السكينة النفسية التى حرمها الماديون ، ونعم بها المؤمنون ، ما يُناجى به المؤمن ربه كل يوم من صلاة ودعاء .

---

(١) هذا فى التشهد الذى يتكرر فى الصلوات المفروضة وحدها تسع مرات يومياً عدا السُّنَّة والنوافل .

فالصلاة لحظات ارتقاء روحي يفرغ المرء فيها من شواغله في دنياه ، ليقف بين يدي ربه ومولاه ويُثني عليه بما هو أهله ، ويُفضي إليه بذات نفسه : داعياً راغباً ضارعاً .

وفي الاتصال بالله العلي الكبير قوة للنفس، ومدد للعزيمة، وطمأنينة للروح. لهذا جعل الله الصلاة سلاحاً للمؤمن يستعين بها في معركة الحياة ، ويواجه بها كوارثها وآلامها ، قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة:١٥٣]. وكان محمد رسول الله إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، ولم تكن صلاته مجرد شكل أو رسم يُؤدَى ، وإنما كانت استغراقاً في مناجاة الله ، حتى إنه كان إذا حان وقتها قال لمؤذنه بلال في لهفة المتشوِّق واشتياق الملهوف : « أرِحْنَا بها يا بلال » [١] .. وكان يقول : « جُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة » [٢] .

وقد أعجبني ما كتبه « ديل كارنيجي » [٣] عن الأثر المبارك للصلاة في النفس البشرية ، وهو يريد الصلاة بمعناها العام المشترك بين الأديان جميعاً ، وهو الدعاء ، والتضرع والابتهال إلى الله ، قال : « ولا يقعد بك عن الصلاة والضراعة والابتهال أنك لست متديناً بطبعك ، أو بحكم نشأتك ، وثق أن الصلاة سوف تُسدي إليكَ عوناً أكبر مما تُقَدِّر ، لأنها شيء عملي فعَّال ، تسألني : ماذا أعني بشيء عملي فعَّال ؟ أعني بذلك أن الصلاة يسعها أن تحقق لك أموراً ثلاثة لا يستغني عنها إنسان سواء أكان مؤمناً أو ملحداً :

١- فالصلاة تعينك على التعبير بأمانة ودقة عما يشغل نفسك ، ويثقل عليها ، وقد بيَّنا فيما سلف أن من المحال مواجهة مشكلة ما ما دامت غامضة غير واضحة المعالم ، والصلاة أشبه بالكتابة التي يُعبِّر بها الأديب عن همومه ، فإذا كنا نريد حلاً لمشكلاتنا وجب أن نُجريها على ألسنتنا واضحة المعالِم ، وهذا ما نفعله حيث نبث شكوانا إلى الله .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود .

(٢) في كتاب : « دع القلق وابدأ الحياة » ص ٣٠١ – ٣٠٢ .

(٣) رواه أحمد والنسائي .

٢ـ والصلاة تشعرك بأنكَ لستَ منفرداً بحل مشكلاتك وهمومك . فما أقل من يسعهم احتمال أثقل الأحمال وأعسر المشكلات منفردين ، وكثيراً ما تكون مشكلاتنا ماسة أشد المساس بذواتنا فنأبى أن نذكرها لأقرب الناس إلينا ، ولكننا يسعنا أن نذكرها للخالق عز وجل فى الصلاة .

والأطباء النفسيون يُجمعون على أن علاج التوتر العصبى ، والتأزم الروحى يتوقَّف ـ إلى حد كبير ـ على الإفضاء بمبعث التوتر ومنشأ الأزمة ـ إلى صديق قريب ، أو ولى حميم . فإذا لم نجد من نفضى إليه كفانا بالله ولياً .

٣ـ والصلاة بعد هٰذا تحفزنا إلى العمل والإقدام ، بل الصلاة هى الخطوة الأولى نحو العمل ، وأشك فى أن يوالى امرؤ الصلاة يوماً بعد يوم ، دون أن يلمس فائدة أو جدوى ، أو بمعنى آخر ، دون أن يتخذ خطوات مثمرة نحو تحسين حالته ، وتفريج أزمته ، وقد قال « ألكسيس كاريل » (١) : « الصلاة هى أعظم طاقة مولدة للنشاط عُرفت حتى الآن ، فلماذا لاننتفع بها » ؟ اهـ .

وإذا كان هذا شأن الصلاة بعامة ، فإن الصلاة الإسلامية أزكى وأعمق أثراً ، بما فيها من طهارة بدنية منشطة ، وما فيها من قرآن يُتلى ، وهو كتاب الخلود ، وما فيها من إحياء الجماعة التى رَغَّب الإسلام فيها ، وحَثَّ عليها .

أى سكينة يشعر بها المؤمن حين يلجأ إلى ربه فى ساعة العُسرة ويوم الشدة ، فيدعوه بما دعاه به محمد من قبل : « اللّهم رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، مُنزِّل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذُ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول ، فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ، فليس دونك شيء ، اقض عنى الدين ، وأغننى من الفقر » (٢) .

---

(١) مؤلف كتاب « الإنسان .. ذلك المجهول » والحائز على جائزة نوبل .
(٢) رواه مسلم .

وأى طمأنينة ألقيت في قلب محمد رسول الإسلام يوم عاد من الطائف دامي القدمين ، مجروح الفؤاد من سوء ما لقى من القوم ـ فما كان منه إلا أن رفع يديه إلى السماء يقرع أبوابها بهذه الكلمات الحية النابضة التى دعا بها محمد ربه، فكانت على قلبه برداً وسلاماً : « اللَّهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى . . . » .

● المؤمن لا يعيش بين (لو) و (ليت) :

وإن من أهم عوامل القلق الذى يُفقد الإنسان سكينة النفس وأمنها ورضاها هو تحسره على الماضى وسخطه على الحاضر ، وخوفه من المستقبل .

إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر ، فيظل فيها شهوراً وأعواماً، يجتر آلامها ويستعيد ذكرياتها القاتمة ، متحسراً تارة ، متمنياً أخرى . شعاره : ليتنى فعلت ، وليتنى تركت ، لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، وقديماً قال الشاعر :

ليت شعرى ، وأين منى « ليت » ؟ إن «ليتا » وإن « لوًّا » . . عناء

ولذا ينصح الأطباء النفسيون ، والمرشدون الاجتماعيون ، ورجال التربية ، ورجال العمل أن ينسى الإنسان آلام أمسه ، ويعيش فى واقع يومه ، فإن الماضى بعد أن ولَّى لايعود .

ما مضى فات ، والمؤمَلُ غيبٌ ولك الساعة التى أنتَ فيها

وقد صوَّر هذا أحد المحاضرين بإحدى الجامعات بأمريكا تصويرا بديعا لطلبته حين سألهم : كم منكم مارس نشر الخشب ؟ فرفع كثير من الطلبة أصابعهم ، فعاد يسألهم : وكم منكم مارس نشر نشارة الخشب ؟ فلم يرفع أحد منهم أصبعه ، وعندئذ قال المحاضر : بالطبع لا يمكن لأحد أن ينشر نشارة الخشب ، فهى منشورة فعلاً . . وكذلك الحال مع الماضى : فعندما ينتابكم القلق لأمور حدثت فى الماضى . فاعلموا أنكم تمارسون نشر النشارة !!

وقد نقل هذا التصوير « ديل كارنيجى »، كما نقل قول بعضهم : « لقد

وجدتُ أن القلق على الماضى لا يُجدى شيئاً تماماً كما لا يجديك أن تطحن الطحين ، ولا أن تنشر النشارة ، وكل ما يُجديك إياه القلق هو أن يرسم التجاعيد على وجهك ، أو يُصيبك بقرحة في المعدة »(١).

ولكن الضعف الإنساني يغلب على الكثيرون ، فيجعلهم يطحنون المطحون ويبكون على أمس الذاهب ، ويعضون على أيديهم أسفاً على ما فات ، ويُقلِّبون أكفهم حسرة على ما مضى .

وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة ، والأفكار الداجية هو المؤمن الذى قوى يقينه بربه ، وآمن بقضائه وقَدره ، فلا يُسلم نفسه فريسة للماضى وأحداثه ، بل يعتقد أنه أمرٌ قضاه الله كان لا بد أن ينفذ ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضا والتسليم ، ثم يقول ما قال الشاعر :

سبقت مقادير الإله وحكمه فأرح فؤادك من «لعل» ومن « لو »

وقول الآخر :

ولست براجع ما فات منى بلهف ولا بليت ولا لو أنى

إنه لا يقول : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، ولكن يقول : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن « لو » تفتح عمل الشيطان (٢) كما علّمه الرسول ﷺ .

إنه يُوقن أن قَدَرَ الله نافذ لا محالة ، فلمَ السخط ؟ ولمَ الضيق والتبرم ؟ والله تعالى يقول : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [الحديد :٢٢-٢٣] . .

وفى غزوة أُحد التى قُتِلَ فيها سبعون من المسلمين ، نعى القرآن على طائفة من المنافقين ومرضى القلوب ، وضعاف الإيمان ، وعاشوا بين « لو » المتندمة و« ليت » المتحسرة ، فيقول : ﴿ **وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ**

---

(١) دع القلق وابدأ الحياة ، ص١٧٣

(٢) رواه مسلم .

الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾

[آل عمران: ١٥٤]

ويرد على أولئك الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ المَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٨] . .

المؤمن لا يقف موقف هؤلاء المنافقين، ولا موقف إخوانهم من الكفار الذين نهى القرآن عن التشبه بهم فى تحسراتهم الأسفية، وتمنياتهم الحزينة . .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٦-١٥٨] . .

إن شعار المؤمن دائماً: « قَدَّر الله وما شاءَ فعل . . الحمدُ لله على كل حال »

وبهذا لا يأسى على ما فات، ولا يحيا فى خضم اليوم من الذكريات، وحسبة أن يتلو قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١] . . وهذا يُسبغ عليه أيضاً نعمة الرضا الذى سنتحدث عنه فيما يلى .

* * *

الرضـا

« إن الله عز وجل بقسطه جعل الفرح والروح فى الرضا واليقين ، وجعل الغم والحُزن فى السخط والشك » (حديث شريف)

● الفرح والروح فى الرضا واليقين :

فى هذا الحديث الشريف كشف عن حقيقة نفسية باهرة ، فكما أن سُنَّة الله قد ربطت الشبع والرى بالطعام والشراب فى عالَم المادة ، فإن سُنَّته تعالى فى عالَم النفس والروح قد ربطت الفرح والروح - وبعبارة أخرى السرور وراحة النفس - بالرضا واليقين ، فبرضا الإنسان عن نفسه وربه يطمئن إلى يومه وحاضره ، وبيقينه بالله والآخرة والجزاء ، يطمئن إلى غده ومستقبله . ومَن غير المؤمن فى رضاه عن يومه ، ويقينه بغده ؟ كما ربطت سُنَّة الله الغم والحزن بالسخط والشك . فالساخطون والشاكون لا يذوقون للسرور طعماً . إن حياتهم كلها سواد ممتد ، وظلام متصل ، وليل حالك لا يعقبه نهار ولا يُرتقب له فجر صادق . وقد ربط الحديث النبوى الكريم بين السخط والشك وهما متلازمان ، فلا سخط من غير شك ، ولا شك من غير سخط . قال ابن القيم : قَلَّ أن يسلم الساخط من شك يُداخل قلبه ويتغلغل فيه ، وإن كان لا يشعر به ، فلو فتش نفسه غاية التفتيش ، لوجد يقينه معلوماً مدخولاً . فإن الرضا واليقين أخوان مصطحبان ، والشك والسخط قرينان .

الساخط إنسان دائم الحزن ، دائم الكآبة . ضيق الصدر ، ضيق الحياة ، ضيق بالناس ، ضيق بنفسه ، ضيق بكل شيء ، كأن الدنيا - على سعتها - فى عينيه سم الخياط .

وإن المؤمن قد تصيبه الكآبة ، وقد يعتريه الحزن ، ولهذا قال الله لرسوله : ﴿ ولاَ تحْزَنْ عليْهِمْ ﴾ [النمل : ٧٠] .. ﴿ ولاَ يحزُنكَ قَولُهُمْ ﴾ [يونس : ٦٥] ..

ولكن حزن المؤمن لغيره أكثر من حزنه لنفسه ، وإذا حزن لنفسه فلآخرته قبل دنياه . وإذا حزن لدنياه فهو حزن عارض موقوت كغمام الصيف ، سرعان ما ينقشع إذا هبَّت عليه ريح الإيمان . حتى النفوس المنقبضة والطبائع المتشائمة ، ينشر الإيمان عليها من ضيائه وإشراقه ، فيبدد كثيراً من ظلامها ويُخفف كثيراً من انقباضها ويُطارد أسباب السخط والتشاؤم من وجودها .

أما المرتاب فى الله والآخرة ، فهو يعيش فى مأتم مستمر ، ومناحة دائمة . لأنه يعيش فى سخط دائم ، وغضب مستمر . ساخط على الناس ، ساخط على نفسه ، ساخط على الدهر ، ساخط على كل شيء . وقديماً قالوا : مَن غضب على الدهر طال غضبه . ولهذا هو فى مأتم مستمر ، يبكى دائماً حظه وينعى نفسه ، وينوح على دنياه ، ويولول على وجوده . كما وصف بعض المرتابين نفسه فقال : إنه حزين بعاطفته وتفكيره وسلوكه .. حزين بأعصابه وأعصاب الكون والآلهة والناس والأشياء ! .. لا يعرف لماذا هو لهذا هو حزين، لا يعرف لماذا هو حزين، كما لا يعرف لماذا هو!!

إن شعور الإنسان بالرضا من أول أسباب السكينة النفسية التى هى سر السعادة.

وفى الحديث : « من سعادة المرء استخارته ربه ، ورضاه بما قضى ، ومن شقاء المرء تركه الاستخارة وعدم رضاه بعد القضاء » (١) .

فكل أمر مِقدور يكتنفه أمران : الاستخارة قبل وقوعه ، والرضا بعد وقوعه ، والسعيد من جمع بينهما ، وذلك هو المؤمن ، والشقى من حرمهما . المؤمن يسأل الله قبل إقدامه على أمر من الأمور أن يهديه إلى أرشد الأعمال وأهدى السبل ، ومن الأدعية التى علّمها لنا الرسول : « اللّهم إن كنتَ تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فيسره لى ، وبارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاصرفه عنى ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضِّنى به » (٢)

والمؤمن وحده هو الذى يغمره الإحساس بالرضا بعد كل قَدَر من أقدار الله .

---

(١) رواه البزار ومعناه عند أحمد والترمذى .

(٢) رواه البخارى وغيره .

المؤمن هو الذى يحس تلك الحالة النفسية التى تجعله مستريح الفؤاد ، منشرح الصدر ، غير متبرم ولا ضجر ، ولا ساخط على نفسه ، وعلى الكون والحياة والأحياء . ومنشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص فى نفسه ، وعن الوجود العام من حوله ، ومبعث هذا وذاك رضاه عن مصدر الوجود كله ، وينبوع هذا الرضا هو الإيمان بالله رب العالمين .

الرضا نعمة روحية جزيلة ، هيهات أن يصل إليها جاحد بالله ، أو شاك فيه ، أو مرتاب فى جزاء الآخرة ، إنما يصل إليها مَن قوىَ إيمانه بالله وحَسُنَ اتصاله به . وقد خاطب الله رسوله عليه السلام بقوله : ﴿ **فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى** ﴾ [طه : ١٣٠] وامتن عليه بقوله : ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى** ﴾ [الضحى : ٥]

وقال النبى ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رَضِيَ بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً » (١) .

وأثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله : ﴿ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ [البينة : ٥]

● **المؤمن راض عن نفسه وعن ربه :**

المؤمن راض عن نفسه ، أعني عن وجوده ومكانه فى الكون ، لأنه يعلم أنه ليس ذرَّة ضائعة ، ولا كمّاً مهملاً ، ولا شيئاً تافهاً ، بل هو قبس من نور الله ، ونفخة من روح الله ، وخليفة فى أرض الله .

وهو راض عن ربه ، لأنه آمن بكماله وجماله ، وأيقن بعدله ورحمته ، واطمأن إلى عمله وحكمته ، أحاط سبحانه بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، ووسعَ كل شيء رحمة ، لم يخلق شيئاً لهواً ، ولم يترك شيئاً سُدى ، له الملك ، وله الحَمد نعمه عليه لا تُعد ، وفضله عليه لا يُحد ، فما به من نعمة فمن الله ، وما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه ، يُردد دائماً

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى .

هذا الثناء الذى ردده من قبل أبونا إبراهيم خليل الرحمن : ﴿ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴾ [الشعراء : ٧٨-٨٢] . . المؤمن موقن تمام اليقين أن تدبير الله له أفضل من تدبيره لنفسه ، ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أبويه به ، ينظر فى الأنفس والآفاق فيرى آثار بره تعالى ورحمته ، فيناجي ربه : ﴿ **بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمرن : ٢٦] .

فالخير بيديه ، والشر ليس إليه ، وما يظنه الناس شراً ، في الوجود ، ليس هو شرًّا فى الحقيقة . وإذا كان لا بد من تسميته شراً ، فإنما هو شرًّا جزئى خاص مغمور فى جانب الخير الكلى العام ، وهذا الشر الجزئى ، أو الشر الموهوم اقتضاه التكافل بين أجزاء الوجود ، هذا التكافل الذى يقول فيه الأستاذ العقاد : «إن المعتقدين به ـ أى بهذا التكافل ـ يرون أن الشر لا يناقض الخير فى جوهره ، ولكنه جزء متمم له، أو شرط لازم لتحقيقه ، فلا معنى للشجاعة بغير الخطر ، ولا معنى للكرم بغير الحاجة ، ولا معنى للصبر بغير الشدة ، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها وترجح عليها ، وقد يطرد هذا القول فى لذاتنا المحسوسة كما يطرد فى فضائلنا النفسية ، ومطالبنا العقلية ، إذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع ، ولا نستمتع بالرى ما لم نشعر قبله بلهفة الظمأ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح »[١] .

● المؤمن راض عن الكون والحياة :

والمؤمن ـ نتيجة لهذا ـ راض عن الحياة والكون من حوله ، لأنه يعتقد أن هذا الكون الفسيح صنع الله الذى أتقن كل شيء ﴿ **الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾ [طه : ٥٠]، وكل ذرة فى الأرض أو السماء تدل على حكمة حكيم، وتقدير عزيز عليم ، وتدبير مَلِك عظيم ، ورعاية رب كريم رحيم .

المؤمن ـ كما قال الإمام الغزالى[١]ـ يُصدِّق تصديقاً يقينيا لا ضعف فيه

(١) حقائق الإسلام :ص ٨

(٢) الإحياء ـ ربع المنجيات ـ كتاب التوكل : ص ٢٢٢ ، ط الحلبى .

ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم ، وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم ، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً ، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور ، وأطلعهم على أسرار الملكوت ، وعرَّفهم دقائق اللُّطف ، وخفايا العقوبات ، حتى اطلعوا به على الخير والشر ، والنفع والضر ، ثم أمرهم أن يُدبِّروا المُلك والملكوت ، بما أعطوا من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم من التعاون والتظاهر عليه ، أن يُزاد فيما دبَّر الله سبحانه ، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر ، عمن بُلِي به ، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غِنَى أو نفع ، عمن أنعم الله به عليه ، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض - إن رجَّعوا فيها البصر ، وطوَّلوا فيها النظر - ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور ، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل ، وسرور وحزن ، وعجز وقدرة ، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية ، فكله عدل محض لا جَور فيه ، وحق صِرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي كما ينبغي وبالقَدْرِ الذى ينبغى ، وليس فى الإمكان أصلاً أحسن منه ، ولا أتم ، ولا أكمل ، ولو كان ادخره - مع القدرة - ولم يتفضل به لكان بخلاً يناقض الجود ، وظُلماً يناقض العدل ، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية . اهـ .

فما عرفه المؤمن من حكمة الله فى خلقه ، وأسراره فى كونه ، فبها ونعمت . وما خَفِيَ عليه وكَّله إلى عالمه ، وقال فى تواضع أُولى الألباب : ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ** ﴾ [آل عمران : ١٩١] ..

لذا نرى المؤمن راضياً عما قدَّر الله له . وما قضى الله فيه ، وينشد دائماً :

إذا ما رأيت الله فى الكل فاعلاً رأيت جميع الكائنات ملاحا

● **المؤمن عميق الإحساس بنعم الله عليه :**

إن مما يُسخط الناس على أنفسهم وعلى حياتهم ، ويحرمهم لذَّة الرضا، أنهم قليلو الإحساس بما يتمتعون به من نعم غامرة، ربما فقدت قيمتها بإلفها،

أو بسهولة الحصول عليها ، وهم يقولون دائماً : ينقصنا كذا وكذا ، ونريد كذا وكذا ، ولا يقولون : عندنا كذا وكذا .

ولكن المؤمن عميق الإحساس بما لله عليه من فضل عميم ، وإحسان عظيم ، ونعَم تحيط به عن يمينه وعن شماله ، ومن بين يديه ومن خلفه ، ومن فوقه ومن تحته . إنه يشعر بنعمة الله عليه منذ كان في المهد صبياً ، بل منذ كان في بطن أُمه جنيناً ، كان صبياً وليداً لا سن له تقطع ، ولا يد له تبطش ، ولا قدم له تسعى ، فأجرى الله له عرقين رقيقين في صدر أُمه يُجريان لبناً خالصاً كامل الغذاء ، دافئاً في الشتاء ، بارداً في الصيف ، وألقى الله محبته في قلب أبويه ، فلا يطيب لهما طعام ولا شراب ، ولا يهنأ لهما نوم ولا عيش ، حتى يكفياه ما أهمه ويدفعا عنه كل سوء.

وكان في بطن أُمه جنيناً ، فجعل الله له قراراً مكيناً ، هيأ له فيه أسباب الغذاء والدفء والتنفس ,وجعل له متكأً عن يمينه ، ومتكأً عن شماله : ﴿ **أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ** ﴾ [المرسلات : ٢٠-٢٣] . .

المؤمن يشعر بنعمة الله عليه في كل شيء حوله ، ويرى في كل ذرّة في الأرض أو في السماء منحة من الله له ، تيسر له معيشته ، وتعينه على القيام برسالته في الحياة . إنه يرى نعمة الله في هبة الريح ، وسير السحاب ، وتفجر الأنهار وبزوغ الشمس ، وطلوع الفجر ، وضياء النهار ، وظلام اللّيل ، وتسخير الدواب ، وإنبات النبات .

ولنقرأ في مثل هذا قول الله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [لقمان : ٢٠] ﴿ **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الجاثية : ١٢-١٣] . . ﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَباً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ**

وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يس : ٣٣-٣٦] .. ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ [يس : ٧١-٧٣] ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً * وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ [الفرقان :٤٧-٤٩] .. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص :٧١-٧٣] .. ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *

وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ٥ – ١٨] ..

وهكذا يرى المؤمن ـ بتوجيه كتاب الله له ـ آثار رحمة الله ونعمته فى كل شيء حوله ، أما نعمة الله عليه فى شخصه هو فما أعظمها وما أغزرها !

فأولها : نعمة الخلق ، ولولا مشيئته وفضله لبقى فى ظلمة العدم ، ولم يكن شيئاً مذكوراً ﴿ **هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً** ﴾

[الإنسان : ١–٢]

وثانيها : نعمة الإنسانية : فقد شاء الله أن يخلقه بشراً سوياً ، ويستخلفه فى الأرض ، ويُفضله على كثير من خلقه ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٧٠] ويتبع ذلك حسن الصورة الحسية المعنوية : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [التين : ٤]. ﴿ **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** ﴾ [التغابن :٣].

وثالثها : نعمة الإدراك والعلم . ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق : ٣ –٥] .. ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [النحل : ٧٨] .. وهذه الثلاث هى أدوات العلم ومداركه .

ورابعها : نعمة البيان النطقى والخطى ﴿ **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ [الرحمن : ١–٤] .. ﴿ **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** ﴾ [العلق:٤] .. ﴿ **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ [القلم : ١] ..

وخامسها : نعمة الرزق ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ [فاطر : ٣] .. ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ** ﴾ [سبأ : ٢٤] ..

وسادسها : وهذا خاص بالمؤمن ـ نعمة الإيمان والهداية إلى صراط الله المستقيم .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات : ٧ – ٨] ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات : ١٧] .

وسابعها : نعمة الأخوة والمحبة : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .. ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٣] ..

ولقد كان محمد رسول الله أشد الناس إحساساً بنعمة الله وفضله فى كل شؤونه ، ولذا تراه إذا تناول طعامه ـ وإن كان من خشن الخبز وجاف الشعير ـ يتناوله تناول الراضى الشاكر ، ويقول فى ختام الطعام : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » ، وإذا شرب الماء القراح قال : « الحمد لله الذى جعله عزباً فُراتاً برحمته ، ولم يجعله مِلحاً أُجاجاً بذنوبنا » .

وإذا اكتسى ثوباً أو عمامة أو نحو ذلك قال : « الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حَول منى ولا قوة ، اللّهم إنى أسألك خيره وخير ما هو له » .

وإذا ركب دابة قال ما علّمه الله إياه ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : ١٣–١٤] ..

وإذا استيقظ من نومه قال « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

وإذا قضى ضرورته البشرية وخرج من الخلاء قال : « الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى » .

وإذا رأى مبتلى فى جسمه أو حواسه قال : «الحمد لله الذى عافنا مما ابتلى به كثيراً من خلقه» .

وإذا تم له أمر على ما كان ينبغى ويريد قال : «الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات» .

وإذا خاب له رجاء أو حدث له ما يكره بطبيعته البشرية قال : «الحمد لله على كل حال» .

وإذا استقبل وجه الصباح قال : « اللّهم إنى أصبحتُ منك فى نعمة وعافية وستر ، فاتم عليَّ نعمتك وعافيتك وسترك فى الدنيا والآخرة ، اللّهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك .. فلك الحمد ولك الشكر» .

وإذا أظله المساء قال مثل ما قال فى الصباح .

فهذا هو شعور المؤمن دائماً ، شعور الذاكر لنعمة الله ، الشاكر لفضل الله ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النحل : ٥٣] .. ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

و لا عجب أن كانت أول آية فى كتاب الله الخالد ـ بعد البسملة ـ آية تُشعر المؤمنين أبداً بنعمة الله وإحسانه وتوجيههم إلى حمده وشكره ، تلك هى آية فاتحة الكتاب ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الفاتحة : ٢] ، ولا غرو أن جعل الإسلام تلاوتها فريضة يومية يُكررها المسلم كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة فى صلواته الخمس .

المؤمن راض بما قدَّر الله عليه :

والمؤمن كما يغمره الشعور بنعمة الله عليه فى كل حين وفى كل حال ، لا يفقد هذا الشعور وإن أصابته البأساء والضراء ، وهزته زلازل الحياة .

إنه راض بما قضى الله له ، وما قدَّر عليه ، إيماناً بأن الله تعالى لا يفعل شيئاً

عبثاً ، ولا يقضى أمراً يريد به عسراً لعباده ، وأنه ـ سبحانه ـ أرحم بهم ، من الوالدة بولدها، وأن الخير المطوى في جوف ما نظنه كارثة وشراً ، ونكرهه بطبيعتنا البشرية ﴿ **فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً** ﴾[النساء : ١٩] .

ولقد لمس كثير ممن خالط المسلمين من الغربيين أثر هذا الجانب الاعتقادى ـ جانب الرضا بالقضاء ـ فى نفس المسلم ، واستقباله لكوارث الحياة وآلامها ، بنفس لا تتضعضع ، وقلب لا يتحطم .

من ذلك ما كتبه « ف . س . بودلى » تحت عنوان « عشتُ فى جنة الله » قال :

« فى عام ١٩١٨ أوليتُ ظهرى للعالَم الذى عرفته طيلة حياتى ، ويممتُ شطر أفريقيا الشمالية الغربية ، حيث عشتُ بين الأعراب فى الصحراء ، وقضيتُ هناك سبعة أعوام ، أتقنت خلالها لغة البدو ، وكنتُ أرتدى زيهم ، وآكل من طعامهم ، وأتخذ مظاهرهم فى الحياة ، وغدوتُ مثلهم أمتلك أغناماً ، وأنام كما ينامون فى الخيام ، وقد تعمقتُ فى دراسة الإسلام حتى أننى ألَّفتُ كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه (الرسول) وقد كانت الأعوام التى قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سنى حياتى وأحفلها بالسلام والاطمئنان والرضا بالحياة .

وقد تعلمت من عرب الصحراء التغلب على القلق ، فهم ـ بوصفهم مسلمين ـ يؤمنون بالقضاء والقَدَر ، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش فى أمان ، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هينا .

فهم لا يلقون أنفسهم بين براثن الهم والقلق على أمر ، إنهم يؤمنون بأن ما قُدِّرَ يكون ، وأنه لا يصيب الفرد منهم إلا ما كتب الله له ، وليس معنى ذلك أنهم يتواكلون ، أو يقفون فى وجه الكارثة مكتوفى الأيدى ، كلا ، ودعنى أضرب مثلاً لما أعنيه :

هبت ذات يوم عاصفة عاتية ، حملت رمال الصحراء ، وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط ، ورمت بها وادى الرون فى فرنسا ، وكانت العاصفة حارة شديدة

الحرارة حتى أحسستُ كأن شعر رأسي يُنزع من منابته ، لفرط وطأة الحر ، وأحسستُ من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون ، ولكن العرب لم يشكوا إطلاقاً ، فقد هزوا أكتافهم ، وقالوا كلمتهم المأثورة : « قضاء مكتوب » . ولكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير ، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودى القيظ بحياتها ، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء ، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى .. قال رئيس القبيلة : «لم نفقد الشيء الكثير ، فقد كنا خلقاء بأن نفقد كل شيء ، ولكن حمداً لله وشكراً ، فإن لدينا نحو أربعين فى المائة من ماشيتنا ، وفى استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد » .

● **المؤمن راض بما قَسَمَ الله له من رزق :**

والمؤمن راض بما قَسَمَ الله له من رزق ، وما قدَّر له من مواهب ، وما وهب له من حظ ، لأنه مؤمن بعدل الله فيما قَسَّمَ من أرزاق ، وبحكمته فيما وَزَّعَ من مواهب ، وبفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ ، وهذا هو معنى « القناعة » الذى حَثَّ عليه الدين ، وأشاد به الحكماء والصالحون .

ولقد ظلم الناس ـ فيما ظلموا ـ كلمة « القناعة » فحسبوها الرضا بالدون ، والحياة الهون ، وضعف الهمة عن طلب معالى الأُمور ، وإماتة رغبة الطموح إلى الرُقِىّ المادى والمعنوى ، وتمجيد الجوع والفقر والحرمان .

وهذا كله ، كما بينت فى كتابى « مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام » ـ خطأ واضح ، وضلال بعيد . فالحق أن القناعة لا تعنى شيئاً من أوهام الكثيرين عنها . وإنما تعنى أول ما تعنى أمرين :

أولهما : أن الإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا لا يكاد يشبع منها أو يرتوى ، وقد صوَّر ذلك الحديث النبوى : «لو كان لابن آدم واديان من ذهب ، لابتغى ثالثاً ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب »[1] .

---

(١) رواه البخارى .

وكان لا بد للدين أن يهديه إلى الاعتدال فى السعى للغنى ، والإجمال فى طلب الرزق ، وبذلك يضمن التوازن فى نفسه وفى حياته ، ويمنحه السكينة التى هى سر السعادة ، ويجنبه الإفراط والغلو الذى يُرهق النفس والبدن معاً ، ومن ثَمَّ قال ﷺ : « يا أيها الناس ؛ اتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها ، وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، خذوا ما حل ، ودعوا ما حرم » (١) .

ولو تُرك الإنسان يستسلم لنزعات حرصه وطمعه ، لأصبح خطراً على نفسه وجماعته ، فكان لا بد من توجيه طموحه إلى قيَم أرفع ، ومعان أخلد ، ورزق أبقى ، وذلك هو وظيفة الدين معه : ﴿ **وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ [طه : ١٣١] ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ** ﴾

[آل عمران : ١٤-١٥]

وظيفة الإيمان هنا أن يحد من سَورة الحرص والطمع ، وطغيان الشراهة والجشع على النفس البشرية فلا تستبد بها وتجعلها تحيا فى قلق دائم ، لا تكتفى بقليل ، ولا تشبع من كثير ، لا يطفئ غلة ظمئها ما عندها فتمتد عينها إلى ما عند غيرها ، ولا يشبعها الحلال فيسيل لعابها إلى الحرام ، مثل هذه النفس لا ترضى ولا تستريح ، إنها كجهنم ـ أعاذنا الله منها ـ تلتهم الملايين فى جوفها ثم يقال لها ﴿ **هَلِ امْتَلأْتِ** ﴾ .. ﴿ **وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ [ق : ٣٠] ..

وظيفة الإيمان أن يُوَجه النفوس إلى القيَم المعنوية الخالدة ، وإلى الدار الآخرة الباقية ، وإلى الله الحى الذى لا يموت ، ويعلم المؤمن أن الغنى ـ إن كان ينشد

---

(١) رواه ابن ماجه .

الغنى ـ ليس في وفرة المال وكثرة المتاع الأدنى ، وإنما هو فى داخل النفس أولا ، وبذلك ورد الحديث : « ليس الغنى عن كثرة العَرَض إنما الغنى غنى النفس »[1] .

● معنى الرضا بما قسم الله :

وثانى ما تعنيه القناعة ، أن يرضى الإنسان بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره ، وفى حدود ما قُدِّر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه ، فلا يعيش متمنياً ما لا يتيسر له ، متطلعاً إلى ما وُهِبَ لغيره ولم يوهب له ، وذلك كتمنى الشيخ أن يكون له قوة الشباب ، و تطلع المرأة الدميمة إلى الحسناء فى غيرة وحسد . ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل فى حسرة وتلهف ، وطموح البدوى الذى يعيش فى أرض قفراء بطبيعتها إلى رفاهية الحياة وأسباب النعيم ، وكما حدث فى عهد الرسول حين تمنى النساء أن يكن لهن ما للرجال ، فأنزل الله : ﴿ **وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [النساء : ٣٢] . .

وفى حال العُسر وضيق الرزق التى تحل بالأفراد ، ولا تخلو منها حياة الناس ، وفى الأزمات الطارئة التى تحل بالأمم نتيجة حرب أو مجاعة أو نحوها .

وفى البلاد والدول التى تقل مواردها الطبيعية عن توفير الرفاهية لأهلها ، ولا يهتدى كثير منهم سبيلاً لتنمية رزقه أو للهجرة من بلده ـ تكون القناعة بما رزق الله هى الدواء الناجع ، والبلسم الشافى ، وتطلع مثل هؤلاء الذين ذكرنا ليس طموحاً ، ولا علو همة ، إنه طمع فى غير مطمع ، وتمنٍ ما لا يكون وحرص لا ثمرة له إلا الهم والحزن .

وهؤلاء فى حاجة أن يعلموا ويُوقنوا أن السعادة ليست فى وفرة أعراض الحياة، ولكنها فى داخل النفس ، وأولى ما يقال لهم : « ارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » ، « قد أفلح من هُدِىَ للإسلام وكان رزقه كفافاً وقنع به » « ما قل و كفى خير مما كثر وألهى » .

---

(١) متفق عليه .

إنّ الغنى هو الغنى بنفســـه   ولــو أنه عارى المناكب حاف

ما كل ما فوق البسيطة كافيا   وإذا قنعت فبعض شيء كاف

إذن ... من القناعة ألا تكون جشعاً شرهاً ، ولا متطلعاً إلى ما ليس لك ، ولا فى طاقة مثلك ، وبذلك تستروح نسمات الحياة الطيبة التى جعلها الله جزاءً للمؤمنين العاملين فى الدنيا ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ [النحل : ٩٧] .. وقد فَسَّر على أبى طالب الحياة الطيبة بالقناعة .

● **قصة وعبرة :**

ولنقرأ هذه القصة من السيرة[١] نجدها ناطقة بما يصنعه الإيمان بقلوب المؤمنين ، وكيف حوّل طموحهم من الدنيا ومتعها ومادتها إلى الله والدار الآخرة .

قدم وفد نجيب ـ وهم من السكون باليمن ـ ثلاثة عشر رجلاً مسلماً ، فَسُرَّ بهم النبى ﷺ وأكرم منزلتهم ، وأمر بلالاً أن يُحسن ضيافتهم ، وجعلوا يسألون النبى ويتعلمون منه ، وأقاموا أياماً ولم يُطيلوا المكث . رغبة فى رجوعهم إلى قومهم ، ليُعلّموهم مما علّمهم رسول الله ، ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ يُودّعونه، فأرسل إليهم بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يُجيز به الوفود ، ثم قال : هل بقى منكم أحد ؟ قالوا : نعم ـ غلام خلفناه على رحلنا هو أحدثنا سناً ... قال أرسلوه إلينا ... فلما رجعوا إلى رحالهم ... قالوا للغلام : انطلق إلى رسول الله ﷺ فاقض حاجتك منه ، فإنا قد قضينا حوائجنا منه وودعناه .

فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ؛ إنى امرؤ من بنى أبذى ـ يقول ـ من الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حوائجهم فاقــض حــاجتــى يا رسول الله .

قال : وما حاجتك ؟

قال إن حاجتى ليست كحاجة أصحابى ـ وإن كانوا قد قدموا راغبين فى

---

(١) ذكرها ابن القيم فى «زاد المعاد» عند ذكر الوفود .

الإسلام ـ وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم . وإني ـ والله ـ ما أقدمني من بلادى إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني ، وأن يجعل غناى في قلبي .

فقال رسول الله ﷺ وأقبل على الغلامُ « اللَّهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه » . ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه . فانطلقوا راجعين إلى أهليهم .

ثم وافوا رسول الله ﷺ بمِنَى سنة عشر من الهجرة فقالوا : نحن بنو أبذى ، فقال رسول الله ﷺ : ما فعل الغلام الذى أتانى معكم ؟

قالوا يا رسول الله ؛ ما رأينا مثله قط ، وما حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله ، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ، ولا التفت إليها !

فقال الرسول : الحمد لله . إني لأرجو أن يموت جميعاً .

فقال رجل منهم : أوَ ليس يموت الرجل جميعاً يا رسول الله ؟

فقال الرسول ـ مبيناً لهم أن من الناس من يموت مشتتاً موزعاً ـ تتشعب أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا ، فلعل أجله أن يُدركه فى بعض تلك الأودية ، فلا يبالى الله عز وجل فى أيها هلك !

قالوا : فعاش ذلك الغلام فينا على أفضل حال ، وأزهده فى الدنيا ، وأقنعه بما رزق الله ، فلما توفى الرسول ﷺ ، ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام ، قام فى قومه ، فذكَّرهم الله والإسلام ، فلم يرجع منهم أحد . وجعل أبو بكر الصدِّيق يذكره ويسأل عنه ، حتى بلغه حاله ، وما قام به فكتب إلى زياد بن لبيد يوصيه به خيراً .

هذه قصة شاب عَمر الإيمان قلبه ، فلم يجعل همه ما يشغل كثيراً من الناس من زهرة الحياة الدنيا ، بل تعلقت همته بما عند الله ، مما هو خير وأبقى .

حين طلب حاجته من رسول الله كانت حاجته غير حوائج رفاقه ـ بل غير حوائج أكثر الناس . . كانت حاجته دينه قبل دنياه ، حاجة روحه قبل جسده ، حاجة معنى الإنسان لا صورة الإنسان فيه .

حاجته من الرسول : أن يسأل الله له المغفرة والرحمة وأن يجعل غناه فى قلبه!

حاجة ـ ولا ريب ـ قرَّت بها عين رسول الله . وقد ودَّعه وعاد إلى أهله ووطنه، ولكن الرسول الخبير بنفوس الرجال ، لم ينس هذا الشاب ، على بُعد المكان ومرور الزمان .

وفى موسم الحج سأل عنه قومه سؤال المُربِّى العارف عن التلميذ النجيب ، وأجابوه بما سَرَّ قلبه وحمد الله عليه ، وقال فيه كلمته الناصعة الفريدة : «إنى لأرجو أن يموت جميعاً» .

والناس يموتون على ما عاشوا عليه ـ فمَن عاش جميعاً مات جميعاً ، ومَن عاش أوزاعاً شتَّى وأجزاءً متناثرة مات كما عاش .

وقليل من الناس ، بل أقل من القليل ، ذلك الذى يعيش لغاية واحدة ، ويجمع همومه فى هم واحد . يحيا له ، ويموت عليه ، ذلك هو المؤمن البصير الذى جعل غايته الفرار إلى الله ، وسبيل اتباع ما رسم الله ، وكل شيء فيه لله وبالله، ونشيده ﴿ **إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لِلَّه رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَباً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٦٢-١٦٤] .. هذا ـ ولا نَجدَ غيره ـ هو الذى يعيش جميعاً ويموت جميعاً !

● **الرضا مصدر قوة لصاحبه :**

وقبل أن ندع الحديث عن الرضا والقناعة لا بد أن نقول كلمتين :

الأولى : أن القناعة بالقليل من الرزق ليست مصدر ضعف . كما يتوهم قصار النظر من الناس ، كلا .. إنها مصدر قوة لأصحاب المبادئ ، وحملة الرسالات المكافحين ، الذين يتعرضون للاضطهاد والمصادرة والحرمان ، فترى أحدهم يخوض

المعركة ضد الباطل والظلم ، صلب العود ، متين البنيان ، ثابت القدم ، لأنه يعلم من نفسه أن القليل يكفيه مما جشب من الطعام ، وما خشن من اللباس ، وشظف من العيش .

إنه ينظر إلى قصور الأمراء ، وخزائن الملوك ، ورياش المترَفين ، كما ينظر راكب الطائرة المحلقة فى أعالى الفضاء إلى القُرى والمدن والناس ، إنه يرى القصور الشاهقة كالعلب الصغيرة ، ويرى البشر كالنمل فى جحوره .وقد قال حكيم شرقي لأحد تلاميذه : عش على أرز وماء ، متخذاً من ذراعك المطوية وسادة تكن نشوة النفس نصيبك ، وأما الثراء الذى ساءت وسائله ، والأمجاد التى جاءت عن طرائق السوء فكالسحائب العابرة ، لا خصب فيها ولا نماء .

ومما حُكِيَ عن المسيح عليه السلام أنه كان يقول : لباسى الصوف ، وطعامى الشعير ، وسراجى القمر ، ودابتى رجلاى، ووسادتى ذراعى ... أبيتُ وليس لى شىء ، وأصبحُ وليس لى شىء ، وليس على وجه الأرض أغنى منى !!

وصاحب المبدأ والرسالة إذا تمكنت هذه القناعة من نفسه لم يعد يُبالى أو يخاف ، إنه يتغنى بما تغنى به الإمام الشافعى :

أنا إن عشتُ لستُ أعدمُ قوتا وإذا متُّ لست أعدمُ قبراً

همتى همة الملوك ونفسى نفس حر ترى المذلة كفرا

وإذا ما قنعتُ بالقوتِ عمرى فلماذا أخافُ زيداً وعَمْراً ؟

ويحكى الإمام الغزالى فى كتاب «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» من إحيائه . أن شيخاً كان يمشى فى الطريق يلتقط النوى من الأرض فكسر «عوداً» مع خادم يحمله إلى جارية من جوارى هارون الرشد ، تغنى عليه ، وبلغ الخبر الرشيد ، فاستشاط غضباً واحمرت عيناه ، وأرسل ليأتوا إليه بالشيخ ، فجاء الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين . فقال الشيخ : نعم . قال : اركب . فقال : لا . فجاء يمشى حتى وقف على باب القصر ، فغيَّر الرشيد مجلسه ، ثم أمر بالشيخ فأدخل . وفى

كمه الكيس الذى فيه النوى . فقال له الخادم : أخرج هذا من كمك وادخل على أمير المؤمنين ، فقال : من هذا عشائى اللَّيلة .

قال : نحن نُعشيك .

قال : لا حاجة لى فى عَشائك .

فقال الرشيد للخادم : أى شىء تريد منه ؟

قال : فى كمه نوى قلت له اطرحه وادخل على أمير المؤمنين .

فقال الرشيد : دعه لا يطرحه .

فدخل وسلم وجلس، فقال له هارون : يا شيخ؛ ما حملك على ما صنعت؟

قال : وأى شىء صنعتُ ؟

وجعل هارون يستحى أن يقول : كسرت عودى !

فلما أكثر عليه قال : إنى سمعت آبائك وأجدادك يقرأون هذه الآية على المنبر: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ** ﴾ [النحل : ٩٠] .. وأنا رأيت منكراً فغيرته . فقال له هارون : فغيره .

قال راوى القصة فوالله ما قال إلا هذا . فلما خرج أعطى الخليفة رجلاً بدرة (عشرة آلاف درهم) وقال : اتبع الشيخ ، فإن رأيته يقول :

قلتُ لأمير المؤمنين وقال لى ، فلا تعطه شيئاً وإن رأيته لا يُكلِّم أحداً فأعطه البدرة .

فلما خرج من القصر إذا هو بنواة قد غاصت فى الأرض فجعل يعالجها . ولم يُكلِّم أحداً . فقال له : يقول لك أمير المؤمنين : خذ هذه البدرة . فقال : قل لأمير المؤمنين يردها من حيث أخذها .

ويُروى أنه أقبل ـ بعد فراغه من كلامه ـ على النواة التى يعالج قلعها من الأرض وهو يقول :

أرى الدنيا لمن هي في يديه | هموماً كلما كثرت لديه
تُهين المكرمين لها بصغر | وتُكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيتَ عن شيء فدعه | وخذ ما أنت محتاج إليه

بمثل هذه النفس التى تقنع بالتقاط النوى من الأرض وترفض قبول الآلاف من الخلفاء والملوك ، تعلو كلمة الحق ، وتنتصر المبادئ والرسالات .

● **الرضا لا يقتضى السكوت على الباطل :**

والكلمة الثانية : أن رضا الإنسان عن الله ، وعن السير العام للكون والحياة . لا يستلزم الرضا عن كل ما يراه على مسرح الحياة من شذوذ وانحراف جزئى مصدره هذا الإنسان المُكلَّف المختار .

إن رضا الإنسان عن السيَّارات وركوبها ، ليس معناه الرضا عما تُسببه من حوادث ، وما يرتكبه سائقوها من مخالفات لقواعد المرور وآداب الطريق .

لقد رضِيَ المؤمن عن نظام الله فى الكون . ومن هذا النظام ما منح الله من عقل واختيار للإنسان على أساسهما يتحمل المسئولية ، ويكون أهلاً للزجر والثورة عليه ، وتأديبه وتقويمه .

فالمؤمن راض عن نظام الوجود ، ساخط على انحراف الإنسان الذى لم يقم بشكر الله على نعمة العقل والإرادة التى منحها . بل سخَّر نعمة الله فى غير ما خُلقت له .

وهذا السخط على الشذوذ والانحراف البَشرى سخط يرضاه الله ، بل يأمر به، ويتوعَّد المُهدرين له ، والساكتين عنه ، بالعذاب الشديد ﴿ **فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ** ﴾ [هود : ١١٦] ، ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾[المائدة ٧٨-٧٩] . .

الأمن النفسى

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾
[الأنعام : ٨٢]

● أهمية الأمن النفسى لتحقيق السعادة والسكينة :

كما لا يتحسر المؤمن على الماضى باكياً حزيناً ، ولا يلقى الحاضر جزوعاً ساخطاً ، لا يواجه المستقبل خائفاً وجلاً ، ولا يعيش فى فزع منه ، ورهبة من غموضه ، وتوجّس من جبروته ، كأنه عدو شرير متربص ، بل يعيش آمن النفس كأنه فى الجنة . . إن إيمانه كان مصدر أمنه ، والأمن من ثمرات الطمأنينة والسكينة بل هو نوع منها ، إنه طمأنينة تتعلق بالمستقبل ، بكل ما يتوقعه الإنسان ويخاف منه ، أو يخاف عليه ، ولا سعادة بدون هذا الأمن النفسى . . . وقد قيل لحكيم : ما السرور ؟ فقال : الأمن . فإنى وجدت الخائف لا عيش له .

ولا عجب أن جعل الله الجنة دار أمن وسلام كاملين ، فأهلها فى الغرفات آمنين ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وتتلقاهم الملائكة منذ اللحظة الأولى ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٤٦] . .

ولكن تعلم مدى ما يُضفيه الإيمان من أمن وسلام على نفس صاحبه ، ولكى تكون الموازنة بيِّنة ظاهرة بين المؤمن وغيره ، أُحب أن تقرأ بتأمل هذه السطور التالية[١] :

● نموذج للخوف والاضطراب :

« إننى أعيش فى خوف دائم ، فى رعب من الناس والأشياء ، ورعب من نفسى ، لا الثروة أعطتنى الطمأنينة ، ولا المركز الممتاز أعطانيها ، ولا الصحة ،

---

(١) مقتبسة بتصرف من يوميات للأستاذ محمد زكى عبد القادر على لسان صديق أودعه مذكراته .

ولا الرجولة، ولا المرأة ، ولا الحب ، ولا السهرات الحمراء . . . ضقتُ بكل شيء ، بعد أن جربتُ كل شيء .

إننى أكره نفسى ، وأخاف من نفسى ، ألا ترى الأشباح من حولى ؟ ألا تحس بالخوف يفتح فمه لكى يلتهمنى ؟

مِمَ هذا ؟ الهموم ؟ ليست لى هموم . إن همى الأكبر هو هذه الدنيا ، والمال عندى ، المركز والجاه ، والصحة ، والمرأة والجمال ، و . . . كل شيء بين يدىَّ ، كل شيء ملكى ، لماذا أنا خائف إذن ؟ مِمَ أخاف ؟؟ .

من الله ؟ كلا ، إن الله لا وجود له فى حياتى ، مِمَ إذن أخاف ؟ من المجتمع؟ إنى أكرهه وأحتقره وأهزأ به ، من أين يأتينى الخوف إذن ، من الموت ؟ ربما ، ولكنى لا أُبالى به ، ولا أشعر أننى أخافه ، إنه عندى مجرد ظاهرة ، من أين يأتى الخوف إذن ؟

ربما كنت خائفاً لأنه لا يوجد شيء أخاف منه ، ربما كنت خائفاً لأن كل شيء بين يدىَّ ، محضر لدىَّ ، إن الامتلاء كالجوع كلاهما يُخيف ! لو كان المال ليس حاضراً لدىَّ لتمنيته وسعيتُ من أجله ، أنفقتُ يومى وليلى أسعى من أجله . لو كان المركز المحترم بعيداً عنى لبذلتُ جهدى لكى أبلغه ، ولكن كل شيء موجود : المال ، المرأة ، الأصدقاء ، الاحترام . كل ما يسعى الناس إليه ويفكرون فيه مُيَّسَر لى ، ليس لى ما يشغلنى أو يتبعنى الحصول عليه . . . حياتى فضاء . . همومى؟ لا هموم لى . . إذن لا بد أن أخاف ، لأننى لا أجد ما أخاف منه ، لا بد أن أخاف من المجهول الذى لا أعرفه . .

إننى تائه فى الحياة لأننى بلغتُ قمة الحياة . . إن الحياة الآن هى عدوى . . ليس ما فى الحياة ، فكله مَلَكْتُه . . . إننى أشعر أنها تسخر منى ، وتقف فى وجهى كالغول . . عرفتُ الآن مِمَ أخاف . . . إنى أخاف من الحياة ذاتها » .

● **نموذج للأمن والاستقرار :**

هذا نموذج واضح الظلال لنفسية أُولئك المحرومين من حلاوة الإيمان وبرد

اليقين ، وهو يُصوِّر لنا ما يُعانيه هؤلاء من رعب وخوف وقلق وتعب نفس لم يخفف وطأته عليهم وفرة المال والجاه ونعيم الدنيا كله .

وتقرأ في مقابل هذا نموذجا رسمه القرآن لأُم مؤمنة أوحى إليها أن تُلقي بولدها وفلذة كبدها في عرض البحر ، ووعدها برده إليها ، فاستجابت لإيمانها ، وصدَّقت بكلمات ربها ووعده ، وقذفته في التابوت ، ثم في اليم ، ليُلقيه اليمُّ بالساحل ، ليأخذه عدوه المُتربص ، كل هذا وقلبها مطمئن بالإيمان . تقرأ في هذا قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ** ﴾ [القصص : ٧– ٨] .. واستجابت الأُم وصدقها الله وعده ﴿ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[القصص : ١٣] ..

● **الإيمان مصدر الأمان :**

إن الناس يخافون من أشياء كثيرة ، وأُمور شتَّى ، ولكن المؤمن سد أبواب الخوف كلها . فلم يعد يخاف إلا الله وحده ، يخافه أن يكون فرَّط في حقه ، أو اعتدى على خلقه ، أما الناس فلا يخافهم ، لأنهم لا يملكون له ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نُشوراً .

دعا أبو الأنبياء إبراهيم إلى توحيد الله ، وتحطيم الأصنام ، فخوَّفه قومه من آلهتهم التي دعا إلى نبذها ، فقال إبراهيم متعجباً : ﴿ **وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأنعام : ٨١] .. وقد عقَّب الله على ذلك حاكماً بين الفريقين فقال : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾[الأنعام : ٨٢] ..

وفسر النبى ﷺ الظلم فى هذه الآية بالشرك : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾[لقمان : ١٣] . فبين لنا أن الإيمان والتوحيد هما أعظم أسباب الأمن والطمأنينة ، وبالتالى يكون الجحود بالله أو الشرك فيه ، أو الشرك به ، أعظم أسباب الخوف والاضطراب والرعب ، وصدق الله إذ قال : ﴿ **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾[آل عمران : ١٥١]

● **مخاوف الملحدين والشاكين :**

والملحدون الجاحدون أكثر الناس مخاوف ـ وإن كتموها عن الناس ـ إنهم يخافون الزمن والكوارث ، والفقر والمرض والناس ، وأشد ما يُخيفهم الموت ، فهم ينظرون إليه نظرتهم إلى سبع فاتك ، وعدو متربص ، ونهاية مجهولة ، ومصير مخوف .

قال الفيلسوف الأخلاقى ابن مسكويه : «إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لا يدرى الموت على الحقيقة ، ولا يعلم إلى أين تصير نفسه . أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه ، فقد انحلت ذاته ، وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور . وأن العالَم سيبقى موجودا وليس هو بموجود فيه . كما يظنه مَن يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد . أو لأنه يظن أن للموت ألماً عظيماً، غير ألم الأمراض التى ربما تقدمت وأدت إليه . وكانت سبب حلوله . أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت ، أو لأنه متحير لا يدرى على أى شىء يقدم بعد الموت . أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات . وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها » .

ظنون باطلة . ولكن المنكرين والشاكّين يعيشون فى هذه الظنون . ويموتون على هذه الأباطيل ؟ وهم بين الموت والحياة فى قلق وخوف واضطراب . على حين نجد المؤمن أقل الناس خوفاً وأشدهم أمناً .

● **المؤمن آمن على رزقه :**

هو آمن على رزقه أن يفوت فإن الأرزاق فى ضمان الله لا يُخلف وعده ، ولا يُضيع عبده . وقد خلق الأرض مهاداً وفراشاً وبساطاً . وبارَك فيها وقدَّر فيها

أقواتها . وجعل فيها معايش . ووعد عباده فيها بكفالة الأرزاق وعداً كرره وأكده وأقسم عليه . وعد كريم لا يبخل . قدير لا يعجز . حكيم لا يعبث : ﴿ **وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقاً** ﴾[الكهف : ٩٨] .. ﴿ **وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾[الروم :٦] .. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾[الذاريات : ٥٨] .. ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ** ﴾[الذاريات :٢٢-٢٣] . ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾ [هود : ٦] . ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ** ﴾ [العنكبوت :٦٠] .

بهذه الضمانات يعيش المؤمن حياته آمناً على رزقه . مطمئناً إلى أن الله لن يُهلكه جوعاً . وهو الذى يُطعم الطير فى الوكنات . والسباع فى الفلوات . والأسماك فى البحار . والديدان فى الصخور .

ولقد كان المؤمن يذهب إلى ميدان الجهاد حاملاً رأسه على كفه . متمنياً الموت فى سبيل عقيدته ، ومن خلفه ذرية ضعاف ، وأفراخ زُغب الحواصل لا ماء ولا شجر ، ولكنه كان يوقن أنه يتركهم فى رعاية رب كريم ، هو أبَرُّ بهم وأحنى عليهم منه .

وتقول الزوجة عن زوجها وهو ذاهب فى سبيل الله : إننى عرفته أكّالاً وما عرفته رزّاقاً ، ولئن ذهب الأكال لقد بقى الرزّاق !

- **المؤمن آمن على أجله :**

وهو آمن على أجله ، فإن الله قدَّر له ميقاتاً مسمى ، أياماً معدودة وأنفاساً محدودة . لا تملك قوة أن تنقص من هذا الميقات أو تزيد فيه ﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [الأعراف : ٣٤] .. ﴿ **وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا** ﴾ [المنافقون : ١١] .. ﴿ **إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [نوح : ٤] .. ﴿ **وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ** ﴾ [فاطر :١١] ..

أيقن المؤمن أن الله قد فرغ من الآجال والأعمار ، وكتب على كل نفس متى تموت وأين تموت .

ومن كانت منيته بأرضٍ فليس يموت فى أرضٍ سواها

وبهذا ألقى عن كاهله هم التفكير فى الموت والخوف على الحياة .

هذا الأمن على الرزق والأجل منح المؤمن السكينة والطمأنينة ، كما منحه القوة فى مواجهة الحياة وما فيها من طغيان وجبروت .

هدَّد الحجاج سعيد بن جبير بالقتل .. فقال له : لو علمتُ أن الموت والحياة فى يدك ما عبدتُ إلَهاً غيرك !

● **المؤمن لا يخاف الموت :**

وهو كذلك لا يعيش فى خوف من الموت ، وجزع من مرارة كأسه ، إنه زائر لا بد من لقائه ، وقادم لا ريب فيه ، والخوف لا يرده ، والجزع لا يُثنيه ، ﴿ **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ** ﴾ [الجمعة :٨] .. ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ [النساء : ٧٨] .. ﴿ **قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ** ﴾[آل عمران : ١٥٤]

ويهوِّن الموت على المؤمن أنه سبيل الناس قبله من النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين فلا عليه إذا اقتفى أثرهم ، وسار فى دربهم .. إن الموت خَطْب قد عظم حتى هان ، وخشن حتى لان ، إنه بلية عمت ، والبلايا إذا عمت طابت، ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴾ [الزمر: ٣٠] ..

ومتاع الدنيا أهون عند المؤمن من أن يأسى على فراقه بالموت ، كيف والموت قنطرة إلى المتاع الباقى ، والنعيم السرمدى ؟ ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .. ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً** ﴾ [النساء : ٧٧] ..

فالموتُ ليس عدماً محضاً ، ولا فناءً صرفاً ، إنه انتقال من حياة إلى حياة ، ومن طَور إلى طَور ، وفي الأثر : « إنكم خُلقتم للأبد . وإنما تُنقلون من دار إلى دار » .

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي

الموت انطلاق من قفص الجسد وغلافه ـ في الحياة البرزخية ـ ثم عودة إليه في نشأة أُخرى يوم البعث والنشور ، ولقد رُوِيَ أن أحد الصالحين حين أحس بدنو أجله قام فاغتسل وتطيَّب وصلَّى ركعتين ، وما هي إلا برهة حتى دخلوا عليه فوجدوه قد مات مستقبل القبلة ، وعند رأسه ورقة كتب فيها هذه الأبيات :

قل لإخوانٍ رأوني ميتاً فبكوني ورثوني حزنا
أتظنون بأني مَيْتكم ؟ ليس هذا الميت والله أنا
أنا في الصور وهذا جسدي كان ثوبي وقميصي زمنا
أنا عصفور وهذا قفصي طرتُ عنه وبقي مرتهنا
أحمد الله الذي خلصني وبنى لي في المعالي مسكنا
لا تظنوا الموت موتاً ، إنه ليس إلا نقلة من هاهنا !

وقال جلال الدين الرومي في بيان سر الموت ، وحكمة فناء الأجساد قبل حياة الخلود والبقاء : « إن العمران لا يكون إلا بعد الخراب ، وإن الكنز الثمين لا يُعثر عليه إلا بعد حفر الأرض وإثارتها ، فإذا رأيت بيتاً يُهدم ويُخرَّب فاعلم أن هناك تصميماً جديداً وبناءً جديداً ، إنما خرب البيت ليُستخرج منه الكنز الدفين ، وتعمره عمارة جديدة » ، « إن الشجرة لا تعطى الأثمار حتى تنفتح وتسقط الأزهار ، كذلك الروح لا تقوى ولا تجد ، ولا تلبس كسوة جديدة قشيبة حتى يتهدم الجسم الفاني ، ويخلع العمر البالي » (١) .

« إن الله ـ وهو الجوَّاد المطلق ـ لا يسلب نعمة أنعم بها إلا وهو يعطى نعمة

---

(١) من كتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ص ٢٧٩ نقلا عن المثنوى .

أكبر منها ، فلا يسلب هذه الحياة الضعيفة القيمة التى لا تستحق أن تُسمى الحياة الباقية إلا ويُعطى حياة أوسع وأبقى وأجمل وأفضل » .

وقال يحيى بن معاذ : « لا يكره لقاء الموت إلا مريب ، فهو الذى يُقرِّب الحبيب من الحبيب » .

ولم تكن هذه نظرة الخاصة أو المتفلسفة أو المتصوفة فقط للموت ، ولكنها كانت نظرة جمهور المؤمنين .

قيل لأعرابى اشتد مرضه : إنك ستموت : فقال : وإلى أين يُذهب بى بعد الموت ؟ قالوا : إلى الله ، فقال : ويحكم ، وكيف أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير إلا من عنده ؟

وصدق الله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ** ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢] ..

* * *

الأمــل

• أهمية الأمل فى تحقيق السكينة والسعادة :

ومن مصادر الأمن والسعادة لدى المؤمن : ما يغمر جوانحه من أمل ، ذلك الشعاع الذى يلوح للإنسان فى دياجير الحياة فيضىء له الظلمات ، ويُنير له المعالم ويهديه السبيل ، ذلك هو الأمل ، الذى به تنمو شجرة الحياة ، ويرتفع صرح العمران، ويذوق المرء طعم السعادة ، ويحس ببهجة الحياة .

الأمل قوة دافعة تشرح الصدر للعمل ، وتخلق دواعى الكفاح من أجل الواجب ، وتبعث النشاط فى الروح والبدن ، وتدفع الكسول إلى الجَدّ ، والمُجِدّ إلى المداومة على جِدِّه ، والزيادة فيه تدفع المخفق إلى تكرار المحاولة حتى ينجح ، وتحفز الناجح إلى مضاعفة الجهد ليزداد نجاحه ، إن الذى يدفع الزارع إلى الكدح والعَرَق أمله فى الحصاد ، والذى يُغرى التاجر بالأسفار والمخاطر أمله فى الربح ، والذى يبعث الطالب إلى الجِدِّ والمثابرة أمله فى النجاح ، والذى يحفز الجندى إلى الاستبسال أمله فى النصر ، والذى يُهوِّن على الشعب المستعبَد تكاليف الجهاد أمله فى التحرر ، والذى يُحبب إلى المريض الدواء المر أمله فى العافية ، والذى يدعو المؤمن أن يخالف هواه ويطيع ربه أمله فى رضوانه وجنته .

الأمل إذن هو إكسير الحياة ، ودافع نشاطها ، ومخفف ويلاتها ، وباعث البهجة والسرور فيها .

*** ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ! ***

والأمل ـ قبل ذلك كله ـ شىء حلو المذاق ، جميل المحيا فى ذاته ، تحقق أو لم يتحقق . واستمع إلى الشاعر العاشق يقول :

أمانى من ليلى عذاب كأنما ... سقتنى بها ليلى على ظمأ بردا

مُنى إن تكن أحسن المُنى   وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

وضد الأمل اليأس .. وهو انطفاء جذوة الأمل فى الصدر ، وانقطاع خيط الرجاء فى القلب ، فهو العقبة الكئود والمعوِّق القاهر الذى يحطم فى النفس بواعث العمل . ويُوهى فى الجسد دواعى القوة ، ورحم الله من قال :

واليأس يُحدث فى أعضاء صاحبه   ضعفاً ويُورث أهل العزم توهينا

وقال ابن مسعود : « الهلاك فى اثنتين : القنوط والعُجب » ... والقنوط هو اليأس ، والعجب هو الإعجاب بالنفس والغرور بما قدمته . قال الإمام الغزالى : «إنما جمع بينهما : لأن السعادة لا تُنال إلا بالسعى والطلب ، والجد والتشمر ، والقانط لا يسعى و لا يطلب ، لأن ما يطلبه مستحيل فى نظره» .

والمعجب يعتقد أنه قد سعى وأنه قد ظفر بمراده ، فلا يسعى ، فالموجود لا يطلب ، والمحال لا يطلب ، والسعادة موجودة فى اعتقاد المعجب حاصلة ، ومستحيلة فى اعتقاد القانط .. فمن ههنا جمع بينهما » .

ومصداق هذا الكلام فى الحياة جليٌّ واضح : إذا يئس التلميذ من النجاح .. نفر من الكتاب والقلم ، وضاق بالمدرسة والبيت ، ولم يعد ينفعه درس خاص يتلقاه ، أو نُصح يُسدى إليه ، أو تهيئة المكان والجو المناسب لاستذكاره ، أو..أو.. إلا أن يعود الأمل إليه .

وإذا يئس المريض من الشفاء كره الدواء والطبيب ، والعيادة والصيدلية ، وضاق بالحياة والأحياء . ولم يعد يجديه علاج ، إلا أن يعود الأمل إليه .

وهكذا إذا تغلَّب اليأس على الإنسان ـ أى إنسان ـ اسودت الدنيا فى وجهه وأظلمت فى عينيه ، وأُغلقت أمامه الأبواب ، وتقطعت دونه الأسباب ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت :

وأصبح لا يدرى وإن كان دارياً   أقُدَّامه خيرٌ له أم وراءه ؟

ذلك هو اليأس : سم بطىء لروح الإنسان ، وإعصار مدمر لنشاط الإنسان ، وتلك حال اليائسين أبد الدهر : لا إنتاج للحياة ، ولا إحساس بمعنى الحياة .

● **تلازم اليأس والكفر :**

وليس بعجيب أن تجد هذا الصنف من الناس بوفرة وغزارة بين الجاحدين بالله أو ضعاف الإيمان به : لأنهم عاشوا بأنفسهم فحسب - زعموا - وقطعوا الصلة بالكون ورب الكون ، فلا غرو أن نجد هؤلاء الكافرين أيأس الناس . كما نجد اليائسين أكفر الناس ، فهناك ارتباط بين اليأس والكفر ، كلاهما سبب للآخر وثمرة له : اليأس يلد الكفر ، والكفر يلد اليأس : ﴿ **إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ من رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٨٧] .. ﴿ **وَمَن يَقْنَطُ من رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ** ﴾[الحجر : ٥٦] ..

وأظهر ما يتجلى فى هذا اليأس فى الشدة ونزول الشر ، وقد كرَّر القرآن ذمه لهذا النوع من الناس فقال : ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ** ﴾ [هود : ٩] .. ثم استثنى من ذلك بعد : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾[هود : ١١] . وقال : ﴿ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا** ﴾ [الإسراء : ٨٣] .. ﴿ **وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ** ﴾ [فصلت : ٤٩] ..

وليس اليأس من لوازم الكفر فحسب ، بل من لوازم الشك أيضاً ، فكل مَن فقد اليقين الجازم بالله ولقائه ، وحكمته وعدله ، فقد حُرِمَ الأمل والنظرة المتفائلة للناس والكون والحياة ، وعاش ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود قاتم ، ويرى الأرض غابة والناس وحوشاً والعيش لا يُطاق .. على نحو ما قال أبو العلاء :

هذا جناه أبى علىَّ وما جنيتُ على أحد

و قال :

لا تبك ميتاً ولا تفرح بمولود فالميت للدود والمولود للدود !

● **الإيمان يلد الأمل :**

وفى الجانب الآخر نجد الإيمان والأمل متلازمين ، فالمؤمن أوسع الناس أملاً ، وأكثرهم تفاؤلاً واستبشاراً ، وأبعدهم عن التشاؤم والتبرم والضجر ، إذ الإيمان معناه

الاعتقاد بقوة عُليا تُدَبِّر هذا الكون لا يخفى عليها شيء ، ولا تعجز عن شيء ، الاعتقاد بقوة غير محصورة ، ورحمة غير متناهية ، وكرم غير محدود ، الاعتقاد بإله قدير رحيم ، يُجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويمنح الجزيل ، ويغفر الذنوب ، ويقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، إلَهٌ هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وأبر بخلقه من أنفسهم .

إلَهٌ يبسط يده باللَّيل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء اللَّيل .

إلَهٌ يفرح بتوبة عبده أشد من فرحة الضال إذا وجد ، الغائب إذا وفد ، والظمآن إذا ورد .

إلَهٌ يجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعين ضعف أو يزيد ، ويجزى السيئة بمثلها أو يعفو .

إلَهٌ يدعو المُعْرِض عنه من قريب ، ويتلقى المُقْبِلُ عليه من بعيد ، ويقول : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرَّب إلى شبراً تقربتُ إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إلى ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيتُه هرولة » [1] .

إلَهٌ يُداول الأيام بين الناس . فيُبدِّل من الخوف أمناً ، ومن بعد الضعف قوة ، ويجعل من كل ضيق فرجاً ، ومن كل هَمٍّ مخرجاً ، ومع كل عُسرٍ يُسراً .

المؤمن الذى يعتصم بهذا الإله البَرِّ الرحيم ، العزيز الكريم ، الغفور الودود ، ذى العرش المجيد ، الفعَّال لما يريد ـ يعيش على أمل لا حد له ، ورجاء لا تنفصم عُراه . إنه دائماً متفائل ، ينظر إلى الحياة بوجه ضاحك ، ويستقبل أحداثها بثغر باسم ، لا بوجه عبوس قمطرير .

فهو إذا حارب كان واثقاً من النصر ، لأنه مع الله فالله معه ، ولأنه لله فالله له

---

(١) حديث قدسى رواه البخارى وغيره .

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

[الصافات : ١٧٢ -١٧٣]

وإذا مرض لم ينقطع أمله في العافية ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء : ٧٨-٨٠] ..

وإذا اقترف ذنباً لم ييأس من المغفرة ، ومهما يك ذنبه عظيماً فإن عفو الله أعظم ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر :٥٣] .. وهو إذا أعسر لم يزل يؤمل في اليسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ [الشرح : ٥-٦] .. ولن يغلب عُسْرٌ يُسرين أبداً . قال ابن مسعود : لو دخل العسر جُحراً لتبعه اليُسر .

وهو إذا انتابته كارثة من كوارث الزمن كان على رجاء من الله أن يأجره في مصيبته ويخلفه خيراً منها ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾

[البقرة : ١٥٦ -١٥٧]

وهو إذا عادى أو كره ، كان قريباً إلى الصلة والسلام ، راجياً في الصفاء والوئام ، مؤمناً بأن الله يُحوِّل القلوب ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة :٧] ..

وهو إذا رأى الباطل يقوم في غفلة الحق أيقن أن الباطل إلى زوال ، وأن الحق إلى ظهور وانتصار ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾

[الأنبياء : ١٨]

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد :١٧] ..

وهو إذا أدركته الشيخوخة ، واشتعل رأسه شيباً . لم ينفك يرجو حياة أُخرى فيها شباب بلا هرم ، وحياة بلا موت ، وسعادة بلا شقاء ﴿ **جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِياً * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِياً** ﴾ [مريم : ٦١ -٦٢] . .

إن الماديين يقفون عند السُّنَن المعتادة ، والأسباب الظاهرة ، لا يطمعون فى شيء وراءها ، أما المؤمنون فيعلون على ظواهر الأسباب ، وينفذون إلى سر الوجود، إلى الله خالقُ الأسباب والمسببات ، الذى عنده من الأسباب الباطنة ما يخفى على إدراك عباده ، فلماذا لا تتجه قلوبهم إليه حين تدلهم الأزمات ، وتستحكم الحلقات ، ويضيق على أعناقهم الخناق ؟

إنهم يجدون فيه الملاذ فى الشدة ، والأنيس فى الوحشة ، والنصير فى القلة .

يتجه إليه المريض الذى استعصى مرضه على الأطباء، ويدعوه آملاً الشفاء .

ويتجه إليه المكروب يسأله الصبر والرضا، والخلف من كل فائت ، والعوض من كل مفقود .

ويتجه إليه المظلوم آملاً يوماً قريباً ينتصر فيه على الظالم ، فليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب .

ويتجه إليه المحروم من الأولاد سائلاً أن يرزقه ذُرِّية طيبة .

وكل واحد من هؤلاء آمل أن يُجاب إلى ما طلب ، ويحقق له ما ارتجى ، فما ذلك على قدرة الله ببعيد ، وما على الله بعزيز .

طلب إبراهيم الولد وهو شيخ كبير ﴿ **رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [الصافات : ١٠٠] فاستجاب الله له وبعث إليه الملائكة ، فى صورة ضيوف من البشر فقالوا له : ﴿ **إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ** ﴾ [الحجر :٥٣-٥٦] . .

وقد أثنى على ربه فقال : ﴿ الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] ..

ويعقوب بعد أن طالت غيبة ولده يوسف عنه ، وبعدت مسافة الزمن بينه وبينه ، وكان جديراً أن يفقد الأمل فى لقائه ، ثم فجع بحجز شقيقه من بعده فى حادثة صُواع الملك ، لكنه مع هذا لم يتسرب إلى فؤاده اليأس ، بل قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ٨٣]

وحين أبدى أسفه على ابنه يوسف قال له أبناؤه : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف :٨٥-٨٦] .. ثم ألقى إلى أبنائه بحقيقة ما فى نفسه من أمل حلو تُعزِّزه الثقة بالله أن يجمع شمله بأبنائه فقال : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] ..

﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياً * وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِياً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً ﴾ [مريم :٢-٦] فاستجابت له السماء : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِياً ﴾[مريم :٧] ..

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣-٨٤] ..

ويونس قد ابتلعه الحوت ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي المُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧-٨٨] ..

وموسى حين يسرى بقومه لينجو بهم من فرعون وجنوده ، فيعلمون بسراه

ويحشدون الحشود ليدركوه ﴿ **فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** ﴾ [الشعراء : ٦٠-٦١] .. وأى إدراك أكثر من هذا؟ البحر من أمامهم والعدو من ورائهم !! بَيْدَ أن موسى لم يفزع ولم ييأس ، بل قال : ﴿ **كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ [الشعراء :٦٢] ولم يضع أمله سُدى .. ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً** ﴾ [الشعراء : ٦٣ -٦٧] .

ومحمد يلجأ إلى غار ثور فى هجرته مع صاحبه الصِدِّيق ، ويقتفى المشركون آثار قدميه ، ويقول قائفهم : لم يعد محمد هذا الموضع .. فإما صعد إلى السماء من هنا ، وإما هبط إلى الأرض من هنا .. ويشتد خوف الصِدِّيق على صاحب الدعوة وخاتم النبيين ويبكي ويقول : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فيقول له النبى : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، وكانت العاقبة ما ذكره القرآن ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة : ٤٠] ..

وهذه وقائع عرفها التاريخ الذى لا شك فيه ، وربما أنكر الماديون بعضها ، أو كلها ، لأنها تخرج على الأسباب المعتادة للناس ، غير أن المؤمنين يوقنون أن الأسباب المعتادة لا تحد قدرة الله المطلقة ، وليس ثباتها واجباً عقلياً لا يقبل الانفكاك ، ولو جمد العلماء والمخترعون على ما اعتاده الناس ، وما تعارفوا عليه فى عصرهم ، ما تقدَّم العلم شِبراً ولا فِتراً ، وما وصلنا إلى عصر الذرَّة والفضاء .

● **ضرورة الأمل فى الحياة :**

الأمل لا بد منه لتقدم العلوم ، فلو وقف عباقرة العلم والاختراع عند مقررات زمنهم ولم ينظروا إلا إلى مواضع أقدامهم ، ولم يمدهم الأمل بروحه فى كشف المجهول ، واكتساب الجديد من الحقائق والمعارف ، ما خطا العلم خطواته الرائعة إلى الأمام ووصل بالإنسان إلى القمر .

والأمل لا بد منه لنجاح رسالات النهضات ، وإذا فقد المصلح أمله فقد دخل المعركة بلا سلاح يقاتل به ، بل بلا يد تُمسك بالسلاح ، فأنى يُرتقب له انتصار وفلاح ؟ . .

وإذا استصحب الأمل فإن الصعب سيهون ، والبعيد سيدنو ، والأيام تُقرّب البعيد ، والزمن جزء من العلاج .

والمثل الأعلى للمصلحين سيدنا رسول الله صلوات الله عليه :

ظل فى مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو قومه إلى الإسلام ، فيلقون دعوته بالاستهزاء ، وقرآنه باللّغو فيه ، وحججه بالأكاذيب ، وآياته بالتعنت والعناد ، وأصحابه بالأذى والعذاب ، فما لانت له قناة ، ولا انطفأ فى صدره أمل .

اشتد أذى المشركين لأصحابه ، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، وقال لهم فى ثقة ويقين : (تَفرَّقوا فى الأرض وإن الله سيجمعكم) .

وجاءه أحد أصحابه (خبَّاب بن الأرت) وكانت مولاته تكوى ظهره بالحديد المحمى فضاق بهذا العذاب المتكرر ذرعاً ، وقال للرسول فى ألم ، ألا تدعو لنا ؟ كأنه يستبطئ سير الزمن ويستحث خُطاه ويريد حسم الموقف بين الإيمان والشرك بدعوة محمدية تهتز لها قوائم العرش ، فيُنزل الله بأسه بالقوم المجرمين كما أنزله بعاد وثمود والذين من بعدهم .

وغضب النبى ﷺ لهذه العجلة من أصحابه . وألقى عليه درساً فى الصبر على بأساء اليوم ، والأمل فى نصر الغد ، فقال : (إن الرجل قبلكم كان يُمشَّط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ، وينشر بالمنشار فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، والذى نفسى بيده ليُظهرنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .. ولكنكم تستعجلون) !

وفى الهجرة من مكة ، والنبى خارج من بلده خروج المطارَد المضطهَد الذى يُغيِّر الطريق ، ويأوى إلى الغار ، ويسير باللّيل ، ويختفى بالنهار . . .وفى الطريق

يلحقه الفارس المغامر سُراقة بن مالك وفي رأسه أحلام سعيدة بمائة ناقة من حُمر النعم ـ جائزة قريش لمن يأتى برأس محمد حياً أو ميتاً ـ ولكن قوائم جواده تسوخ فى الأرض ويُدركه الوهن ، وينظر إليه الرسول ، ويكشف الله له عن الغيب المستور لدينه فيقول له : (يا سُراقة ؛ كيف بك إذا ألبسك الله سُوارَى كِسرى) ؟ فيعجب الرجل ويبهت ويقول : كِسرى بن هرمز ؟ فيقول : (نعم) .

ويذهب الرسول إلى المدينة ، ويبدأ فى كفاح دام مرير مع طواغيت الشرك ، وأعوان الضلال ، وتسير الحرب ـ كما هى سُنَّة الله ـ سجالاً . حتى تأتى غزوة الأحزاب فيتألب الشرك الوثنى بكل عناصره ، والغدر اليهودى بكل تاريخه ويشتد الأمر على النبى وأصحابه : قُريش وغطفان ومن يحطب فى حبلهما من خارج المدينة ، واليهود والمنافقون من الداخل . موقف عصيب صوَّره القرآن بقوله : ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** ﴾ [الأحزاب : ١٠-١١] فى هذه الساعات الرهيبة التى يذوى فيها عود الأمل ، ويخبو شعاع الرجاء ، ولا يفكر المرء إلا فى الخلاص والنجاة ... فى هذه اللحظات والنبى يُسهم مع أصحابه فى حفر الخندق حول المدينة يصدون بحفره الغزاة ، ويعوقون الطامعين العتاة ـ يُحدِّث النبى أصحابه عن الغد المأمول ، والمستقبل المرجو حين يفتح الله عليهم بلاد كِسرى بفارس ، وبلاد قيصر بالشام ، وبلاد اليمن بالجزيرة ، حديث الواثق المطمئن الذى أثار أرباب النفاق فقالوا فى ضيق وحنق : إن محمداً يعدنا كنوز كِسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الخلاء وحده! أو كما قال القرآن : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً** ﴾ [الأحزاب : ١٢] ..

ماذا تسمى هذا الشعاع الذى يبزغ فى دياجير الأحداث من القلوب الكبيرة، فيُنير الطريق ويُبدِّد الظلام ؟ إنه الأمل ، وإن شئتَ فهو الإيمان بنصر الله : ﴿ **يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٥-٦] ..

الإيمان والحب

«والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا»

[حديث شريف رواه مسلم]

● **قيمة الحب وأهميته فى تحقيق السعادة :**

الحب معنى أخص من الرضا ، وأعمق أثراً ، فقد يرضى الإنسان بالشىء أو يرضى عن الشخص ، ولا يُفضى ذلك إلى حبه وتعلق القلب به . فإن ذلك شأن الحب لا شأن الرضا .

الحب هو روح الوجود ، وإكسير القلوب ، وصمام الأمان لبنى الإنسان .

إذا كان قانون الجاذبية يُمسك الأرض والكواكب والأفلاك أن تصطدم فتتساقط أو تحترق وتزول ، فقانون الحب هو الذى يمسك العلاقات الإنسانية أن تتصادم فتحترق ، وتستحيل إلى دماء.

هذا هو الحب الذى عرف الناس قيمته فى القديم والحديث ، وقالوا : لو ساد الحب ما احتاج الناس إلى العدل ولا إلى القانون .

وقديماً قال صوفى شاعر كبير(١) :

(إن الحب يُحوِّل المر حلواً ، والتراب تِبراً ، والكدر صفاء ، والألم شفاء، والسجن روضة ، والسقم نعمة ، والقهر رحمة ، وهو الذى يلين الحديد ، ويذيب الحجر ، ويبعث الميت ، وينفخ فيه الحياة ...) .

---

(١) هو الصوفى الكبير جلال الدين الرومى ، وهذه الفقرات من شعره الصوفى الوجدانى، وقد نقل هذه الفقرات السيد أبو الحسن فى كتابه «رجال الفكر والدعوة فى الإسلام» ص ٢٨٨ وما بعدها .

(إن هذا الحب هو الجناح الذى يطير به الإنسان المادى الثقيل فى الأجواء ، ويصل من السمك إلى السماك ، ومن الثرى إلى الثريا . . .) .

(بارك الله لعبيد المادة وعباد الجسم فى ملكهم و أموالهم !! لا ننازعهم فى شىء . أما نحن فأُسارى دولة الحب التى لا تزول ولا تحول . .) ! .

(حياك الله أيها الحب المُضنى ! يا طبيب علّتى وسقمى ! يا دواء تخوفى وكبرى ! يا طبيبى النطاسى ! يا مداوىً الآسى) !! .

● **المؤمن يحب كل شىء حتى الكارثة :**

وحديثاً كتب صحفى أديب يعنى بالجوانب النفسية[١] يقول :

(ولمحتُ عن بُعد أضواء تلمع وسط البحر كالنجم الهادى ، وتمنيتُ لو كان لى فى المستقبل مثل هذا النجم . . ومن منا لا يتمنى أن يكون له فى مستقبله نجم هاد ؟ . . نجم هاد فيما بقى من أيام . . . ماذا يكون ؟

الحكمة . . . وماذا تعطينا غير المنطق الجاف ؟

الحذر . . . وماذا يُعطينا غير الخوف الدائم ؟

العمل . . . وماذا يُعطينا غير العَرَق المتصبب والحقد المتأجج ؟

المال . . . وماذا يُعطينا غير الخوف والحذر والعَرَق والعُقد ؟

الحب . . . إنه الجوهر الوحيد الذى يعطينا الأمان والاستقرار والسلام .

نحب كل شىء . . . كل إنسان . . . نحب حتى الكارثة كما نحب النعمة . . . الأولى لتوقظ القوة على المقاومة فتتوهج النفس كأنها تتحفز . . . والثانية نسيم يُلطِّف حر المعركة ، نحب الوجود كله بدايته ونهايته ، الموت فيه والحياة !

هل يستطيع أحد أن يحب هذا الحب ؟ لو فعل لكان مَلاَكاً . .) .

ونحن نُجيب على هذا السؤال فنقول : إن الذى يستطيع أن يحب هذا

---

(١) هو الأستاذ محمد زكى عبد القادر فى إحدى يومياته بجريدة «الأخبار» القاهرية.

الحب الكبير صنف واحد من بنى الإنسان ، إنه الصنف الذى خالطت قلبه بشاشة الإيمان .

الإيمان وحده هو ينبوع الحب المصفى الخالد ، والمؤمن وحده هو الذى يستطيع أن يحب كل شىء حتى الكارثة ، يحب الوجود كله بدايته ونهايته ، الموت فيه والحياة (١).

● **حب الله :**

المؤمن بعقيدة الإسلام نفذ إلى سر الوجود فأحب الله واهب الحياة ومصدر الخلق والأمر ، والإيجاد والإمداد .

---

(١) وقد أشاع المبشرون والمستشرقون أن المسيحية وحدها دين المحبة ولا مجال فيها لبغض أو عنف ، وأن الإسلام دين الجهاد والسيف . ولا مجال فيه لتسامح أو حب . وهذا جهل مركب ، أو تضليل مفضوح ، ففى نصوص المسيحية نجد المسيح يقول فى الإنجيل : «ما جئتُ لألقى على الأرض سلاماً ، بل سيفاً ، فإنى جئت لأُفرِّق الإنسان ضد أبيه ، الابنة ضد أمها، والكنة (زوجة الابن)، ضد حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته»(متى: ١٠: ٣٤-٣٦).

وفى تاريخ المسيحية فى العصور الوسطى نجدها أكثر الديانات شناً للحروب وإراقة للدماء، وإحداثاً للمجازر البشرية الرهيبة ، ليس بينها وبين مخالفيها فحسب ، بل بين طوائفها بعضها وبعض .

والمسيح عليه السلام برىء من هذه المذابح الوحشية . والمسؤول عنها إنما هى الكنيسة التى حرَّفت كلمات الله عن مواضعها ، وأدخلت الوثنية فى دين المسيح وأعطت نفسها حق التحليل والتحريم ، والتشريع فى الدين بما لم يأذن به الله ، وبيع صكوك الغفران وأرض الجنة بالدرهم والدينار ، إن خرافات الكنيسة ومصالحها وأهواء رجالها الذين ساندوا الظلم والاستغلال والفساد هى المسؤولة عن هذه الحروب والدماء .

ومهما يكن الأمر فإن الإسلام المظلوم هو أعظم العقائد دعوة إلى الحب ، وتوكيداً لمعانيه ، وتفجيراً لينابيعه . وأقواها حرباً للعداوة والبغضاء والحسد والحقد وتضييقا لمسالكها ، وإغلاقاً للنوافذ التى تهب منها رياحها السموم .

ولقد قال أحد وجهاء النصارى المنصفين فى طرابلس الشام للسيد رشيد رضا رحمه الله : إن فى الإسلام فضائل كالجبال أو أشمخ وأرسخ ولكنكم دفنتموها . حتى لا تكاد تُعرف أو تُرى ، ونحن عندنا شىء قليل ضئيل ، ككلمة «حب الله والقريب» فمنا زلنا نمطه ونمده ، ونقول «الفضائل المسيحية» حتى ملأ الدنيا كلها ؟

وهى شهادة من مسيحى معتدل لا تحتاج إلى تعليق .

أحبه حب الإنسان للجمال ، فقد رأى في كونه أثر الإبداع والإحكام ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ [الملك :٣] .. ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] .. ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾[السجدة :٧] ..

وأحبه حب الإنسان للكمال ، وهل هناك - في الحقيقة - إلا كماله سبحانه ؟ وكل ما نرى من مظاهر الكمال النسبى إن هى إلا ذرّات مستمدَة منه ، ومفتقرة إليه .

وأحبه حب الإنسان للإحسان ، فالنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، وأى إحسان كإحسان مَن خلقه من عدم ، وجعله بَشراً سوياً ، واستخلفه فى الأرض، وسخّر له الكون جميعاً منه : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [البقرة : ٢٩] .. ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] ..

أحبه لهذا كله ولأكثر منه ، حباً يفوق حب الإنسان لأبويه ، بل لولده ، بل لنفسه ، وأحب كل ما يجىء من قِبَله وكل ما يحبه سبحانه ، أحبَّ الكتاب الذى أنزله ليُخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وأحبَّ النبى الذى أرسله رحمة للعالَمين ، وأحب كل إنسان من أهل الخير والصلاح الذين يحبهم ويحبونه ، وجعل دعاءه ما كان يدعو به محمد رسول الله : (اللّهم ارزقنى حبك وحب من يحبك ، واجعل حبك أحبُّ إلىَّ من الماء البارد) .

● **حب الطبيعة :**

والمؤمن فى ظل الإسلام كما أحب الله أحب الطبيعة والوجود كله ، إنها أثر من آثار ربه : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى :٢-٣] .. كل شىء فيها بحساب ولغاية وحكمة : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩] .. ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن :٥] .. ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر :٢١] ..

الطبيعة ليست عدواً للإنسان ولكنها مخلوق سُخِّر لخدمته ، ليساعده على

القيام بمهمة الخلافة في الأرض ، وكل ما في الكون ألسنة صدق تُمَجِّد الله وتُسبِّحه بلغة قد لا تفهمها العقول البشرية المحدودة : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] ..

فالعالَم ليس شراً يجب التعجيل بفنائه كما صوَّرته الفلسفة المانوية وشبهها، وإنما هو كتاب الله المفتوح للقارئين والأُميين جميعاً ، تُتلَى فيه آيات قدرته ورحمته، وعظمته ونعمته .

هذا العالَم عُلويه وسُفليه ليس إلا صنع الله الذى أعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى ، الذى أفرغ على هذا الكون وحدة جعلته فى أرضه وسمائه وحيوانه ونباته كأجزاء الجسد الواحد تعاوناً واتساقاً وائتلافاً : ﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] ..

ليس فى الكون شيء خُلِقَ جُزافاً أو عبثاً ، كل شيء قد هُيئَ ليؤدى دوره فيما أراد الله من عمارة الأرض ، واستمرار الحياة إلى أجلها ، وخدمة هذا النوع المُكرَّم من الخليقة (الإنسان) .

كان بعض البشر ينظرون إلى الظلام نظرة الخوف والكراهية ، ويتمثل الظلام مظهراً لإلَه الشر الذى يُحارِب إله النور والخير ، فماذا يكون شعور هؤلاء إذا لفهم اللَّيل بردائه الأسود ، ونصف الزمن ليل كما نعلم ؟

لقد أزاحت عقيدة الإسلام هذا الكابوس العقلى والنفسى وقررت أن توزع الزمن بين ليل ونهار ، وظلمة ونور ، آية من آيات الله فى تنظيمه لملكه ، ونعمة من نعم الله على خلقه ، يجب أن يشكروه عليها لا أن يخافوا منها :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * وَمِن

رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص :٧١-٧٣] ..

حب الطبيعة الحق يتمثل فى المؤمنين الذين يرون وجه الله فى هذه الطبيعة ، ويرون فيها قرآنه الصامت الدال على أُلوهيته : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران : ١٩٠-١٩١] ..

ويتمثل هذا الحب بأجلى صوره فى الإسلام الذى أعلن هذا الحب حتى للجبال ، بل لجبل كان يمكن أن يتطيَّر به ، ويتشاءَم من رؤيته ، لِمَا أصابه من هزيمة بجواره ، وذلك هو (جبل أحد) .

روى البخارى عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال : خرجتُ مع النبى ﷺ إلى خيبر أخدمه ، فلما قَدِم النبى ﷺ راجعاً وبدا له أحد قال : « هذا جبل يحبنا ونحبه » .

● **حب الحياة :**

وكما أحبَّ المسلم الطبيعة أحبَّ الحياة، ولم يعتبرها ذنباً جنى به عليه أبواه، ولا عبئاً يجب أن يُلقى ، ولا سجناً يجب أن يهرب منه ، إنما هى رسالة تُؤدَى ونعمة تُشكر .

وفى الحديث النبوى : « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » (١) ، « لا يتمني أحدكم الموت ولا يدعو به من قبل أن يأتيه ، وإنه إذا مات انقطع عمله، وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً » (٢) ، « لا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد ، وإما مسيئاً فلعله يَستعتب » (٣) .

---

(١) رواه أحمد والترمذى وحسَّنه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد والبخارى .

فالحياة خير على كل حال ، فإن قعدت به العزيمة فليقل : « اللَّهم أحيني ما علمتَ الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » (١) .

● **حب الموت :**

والمؤمن لا يحب الحياة حب الحريص على متاعها الأدنى ، المتهافت على لذائذها ، حباً يُخيفه من الموت ، ويُلصقه بتراب الأرض ، بل أحبَّ المؤمن الحياة لأنه يقوم فيها بحق الله من الأرض ، وأحب الموت لأنه يُعَجِّل به إلى لقاء ربه ،وفى الحديث : « مَن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه » (٢) .

حينما خُيِّر الرسول بين لقاء ربه والبقاء فى الدنيا قال : « أختار الرفيق الأعلى » ! وحينما أصاب علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ضربة عبد الرحمن ابن ملجم قال : فزتُ ورب الكعبة ! وحينما حضرت بلالاً الوفاة صرخت امرأته : واكرباه ! فقال لها : بل واطرباه !! غداً ألقى الأحبة محمداً وصَحبه !

وحينما أخذ المشركون فى مكة خبيب بن زيد ليصلبوه كان نشيده الذى يترنم به على خشبة الصلب :

ولستُ أُبالى حين أُقْتَلُ مسلماً ... على أى جنبٍ كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإلَه وإن يشأ ... يبارِك على أوصال شلو ممزع

وكان سيف الله خالد بن الوليد حينما يُرسل إلى قائد من قوّاد الفُرس أو الروم يختم رسالته بعد الدعوة إلى السلام والإسلام بقوله : وإلا ... رميتكم بقوم يُحبون الموت كما تُحبون الحياة .. !!

● **حب الناس :**

وأحبَّ المؤمن الناس جميعاً ، لأنهم إخوته فى الآدمية ، وشركاؤه فى العبودية لله ، جمع بينه وبينهم رحم ونسب ، كما جمع بينهم هدف مشترك وعدو مشترك ..

---

(١) رواه النسائى والحاكم .

(٢) متفق عليه .

أما الرحم العامة الواشجة فقد قال فيها الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ [النساء : ١] .. وما أحق كلمة ﴿ وَالأَرْحَامَ ﴾ هنا أن يُراد بها الأرحام الإنسانية التى تصل بين الناس جميعاً، بدليل فاتحة الآية .

وأما الهدف المشترك والعدو المشترك . فقال فيهما : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً ﴾ [فاطر : ٥-٦] .. فالحياة الآخرة الباقية والخلود فى نعيمها هو الهدف الإنسانى المشترك ، والشيطان المعوِّق عنها هو العدو المشترك .

وعقيدة المسلم لا تسمح بنزعات عنصرية ، ونعرات جنسية ، فالمسلم يعتقد أن الناس جميعاً لآدم وآدم من تراب ، وأن اختلاف اللُّغات والألوان ليس إلا دليلاً على قُدرة الله ، وعلى عظمة الصانع وآياته فى خلقه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم :٢٢]

فشعور المسلم بأُخوته لبني الإنسان جميعاً ليس أمراً ثانوياً عنده ، ولا نافلة فى دينه ، إنما هو عقيدة يدين اللهَ بها ويلقاه يوم القيامة ويُرطِّب بها لسانه ذكراً لله يرجو به عند الله القُربة ، روى الإمام أحمد وأبو داود عن زيد بن أرقم قال : (كان رسول الله ﷺ يقول فى دُبر كل صلاة : اللّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك ، اللّهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك ، اللهّم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة) .

أرأيتَ كيف تسمو الأُخوة البشرية فى ضمير المسلم ؟ إنها فى المرتبة التالية لتوحيد الله ، والإقرار برسالة محمد عليه السلام .

وكيف يُتصور أن يحتقر المسلم جنساً من أجناس البشر ، إن صح أن فى البَشر أجناساً ... وقرآنه الكريم يُعلِّمه أن يحترم أجناس المخلوقات كلها ويعرف لها كيانها من الدواب والحشرات والطيور ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ

بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ [الأنعام : ٣٨] ..

ويقول النبى : «لولا أن الكلاب أُمة من الأمم لأمرتُ بقتلها» .

هذا هو شعور المؤمن بالإسلام نحو الناس ، ليس شعور الاستعلاء العنصرى ولا التعصب الإقليمى ، ولا الحقد الطبقى ، ولا الحسد الشخصى ، وإنما هو شعور الحب والإخاء للناس كافة .

● **المؤمن سليم القلب لا يحسد ولا يحقد :**

وإن أدنى ثمرات المحبة التى يغرسها الإيمان فى قلب المؤمن هى سلامته من الغل والحسد ، فإن أنوار الإيمان كفيلة أن تُبدِّد دياجير الحسد فى قلبه ، وبذلك يُمسى ويُصبح سليم الصدر ، نقى الفؤاد ، يدعو بما دعا به الصالحون : **﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾** [الحشر : ١٠] ..

المؤمن لا يحسد ، لأن الحسد ـ كما سمَّاه رسول الله ـ (داء) من أدواء الأُمم ، داء نفسى يصنع بالروح ما تصنع الأوبئة بالأجسام ، فهو غم على صاحبه ، ونكد دائم له ، وغيظ لقلبه لا ينتهى أمده ، بل هو داء جسدى أيضاً ، يُنهك القُوَى ، ويُؤذى البدن ، ويُغيِّر الوجه ، وقد قال حكيم :

لله در الحسد ما أعدله ... بدأ بصاحبه فقتله !!

وقال شاعر :

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله
النار تأكل نفسها ... إن لم تجد ما تأكله

والمؤمن لا يحسد ، لأنه يحب الخير لعباد الله جميعاً ، وهو لا يعارض ربه فى رعاية خلقه أو تقسيم رزقه **﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾** [الإسراء : ٣٠] .

إنه مؤمن بعدل ربه فيما قَسَّمَ من حظوظ ، وما وَزَّع من مواهب ، ويعتقد أن قضاءه تعالى فى خلقه صادر عن حكمة بالغة يعرف منها ويجهل ، وقد قيل : (الحاسد جاحد ، لأنه لم يرض بقضاء الواحد) . ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٥٤] ..

ومن هنا نرى المؤمن لا يفرح بالمصيبة تنزل بغيره ، ولا يحزن للنعمة يسوقها الله إلى عبد من عباده ، بل يقول ما علَّمه النبى الكريم : « اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر » .

والمؤمن لا يحسد ، لأن همته منوطة بما هو أرفع وأبقى من الدنيا التى يتنافس عليها الناس ، ويتحاسدون ، و إنما يوجه همته إلى معالى الأُمور ، إلى المعانى الباقية : إلى الآخرة والجنة .

روى البخارى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويُعلِّمها » .. ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين :٢٦] .. ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الحديد : ٢١] ..

قال الحسن البصرى : يا ابن آدم ؛ لِمَ تحسد أخاك ؟ فإن كان الذى أعطاه الله لكرامته عليه فلماذا تحسد مَن أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فلِمَ تحسد مَن مصيره إلى النار ؟

وقال ابن سيرين : ما حسدتُ أحداً على شيء من أمر الدنيا .. إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهى حقيرة فى جنب الجنة ؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على الدنيا وهو يصير إلى النار ؟

والمؤمن لا يحقد ، لأنه عفوٌّ كريم ، يكظم غيظه وهو يستطيع أن يُمضيه ، ويعفو وهو قادر على الانتقام ، ويتسامح وهو صاحب الحق ، لا يشغل نفسه بالخصام والعداوات ، فالعمر لا يتسع لمثل هذا العداء ، والدنيا لا تستحق عنده هذا

العناء ، فكيف يُسلم قلبه للعداوة والأحقاد فتنهشها أفاعيها السامة ؟ . وكيف يبيت وفى قلبه لأخيه شحناء العداء فيبيت بعيداً عن رحمة الله ؟ فى الحديث : « تُعرَضُ الأعمال كل يوم إثنين وخميس ، فيغفرُ الله عز وجل فى ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً ، إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقول : اتركوا هذين حتى يصطلحا » (رواه مسلم) .

والمؤمن لا يحسد ولا يبغض ، لأن الحسد والبغضاء من بذور الشيطان ، والمحبة والصفاء من غرس الرحمن ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ** ﴾ [المائدة : ٩١] .. ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً** ﴾ [الممتحنة : ٧] .. ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ [مريم : ٩٦] ..

هذا - وسلامة القلب من الضغن والحسد أول ما يتصف به المؤمن ، بل أدنى ما يتصف به . ولا يكمل إيمان المؤمن حتى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه .

فأين من هذه المعانى الرفيعة ما تنادى به اليوم دعوات هدَّامة . كل همها زرع الأحقاد وبث البغضاء والكراهية والعداوة بين الطوائف والطبقات ، حتى يعيش الناس فى تنازع وصراع دائم ، يتسلّلون من ورائه إلى الحكم والسلطان ؟ !!

● **الإيثار من خصائص المؤمنين :**

وأعلى درجات الحب أن يؤثر الإنسان أخاه على نفسه فيجود له بالشيء وهو محتاج إليه ، يجوع ليشبع أخوه ، ويكد ليرتاح ، ويسهر لينام .

وهذا المعنى مقطوع من جذوره فى بيئات الملحدين والماديين ، فإن المؤمنين يُؤثرون ابتغاء وجه الله ومرضاته ومثوبته ، وأما أُولئك فلوجه من يُؤثرون ؟ وعلام يُؤثرون ؟

ولم تر الدنيا حباً كريماً أصيلاً يعلو على الشهوات والمنفعة كالحب الذى أرسى الإسلام ركائزه بين المسلمين فى مجتمع المدينة .

ها هم المهاجرون يخرجون من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ، فيستقبلهم إخوانهم الأنصار من أهل المدينة بصدور رحبة ويتهافتون عليهم تهافت الظمآن على الشراب البارد العذب ، ويتنافسون عليهم ، كل منهم يريد أن يحظى بواحد منهم في داره ، فلا يُرضيهم إلا القرعة ، ثم يؤاخي الرسول بينهم مؤاخاة قامت مقام أُخوة النسب والدم ، وذابت الفروق الإقليمية والنَسبية ، فلا قحطانيون ولا عدنانيون ، ولا شماليون وجنوبيون ، ولا يمنيون وحجازيون ، ولا أوسيون وخزرجيون ، كما انمحت الفوارق الطبقية والمهنية ، فلا أغنياء وفقراء ، ولا تجار وزُرَّاع ، إنما هي الأُخوة الصادقة ، إنما هو الحب والإخلاص والإيثار : ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الأنفال : ٦٣] . .

قال عبد الرحمن بن عوف المهاجرى القرشي : لما قدمنا المدينة آخى رسول الله بيني وبين سعد بن الربيع ـ الأنصارى الخزرجى ـ فقال سعد لى : (إنى من أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم لك نصف مالى ، وانظر أى زوجتيَّ هويتَ نزلتُ لك عنها ، فإذا حلَّت تزوجتها) وقابل عبد الرحمن هذا الإيثار الكريم من سعد بعفاف كريم منه فقال : (بارَكَ الله لك فى أهلك ومالك . . دلونى على السوق) .

وقد سجل الله فى كتابه الثناء الخالد لموقف الأنصار فقال : ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ [الحشر:٩] . .

يقول أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه (الدين) :

(إن الخدمة الجليلة التى تؤديها الأديان للجماعة ، لا تقف عند تهذيب السلوك ، وتصحيح المعاملة وتطبيق قواعد العدل ، ومقاومة الفوضى والفساد فحسب ، بل إن لها وظيفة إيجابية أعمق أثراً فى كيان الجماعة ، ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم ، لا يعدله رباط آخر من الجنس

أو اللُّغة أو الجوار أو المصالح المشتركة ، بل إن هذه العلائق مجتمعة مهما يكن أثرها الظاهرى من كف الأذى ، وبذل المعروف المتبادَل ، تظل روابط سطحية تضم الأفراد ، كما تضم الأعواد فى ضغث ، ولا تزال تتخللها الفجوات والثغرات والحواجز النفسية ، حتى تشدها رابطة الأُخوة فى العقيدة والمشاركة فى المُثل العليا ، فهناك تعود الكثرة وحدة ، وتصبح النفوس كالمرايا المتقابلة ،تنعكس صور بعضها فى بعض ، بل كثيراً ما تستغنى هذه الوحدة الروحية عن سائر الوحدات الُخرى ، فتنعقد أقوى الوشائج وأدومها ، بين أفراد اختلفت أجناسهم ، وتباينت لهجاتهم ، وتباعدت ديارهم ، وتفاوتت مصالحهم ، وكثيراً ما نرى فى الدول التى تقوم على قاعدة المصالح المشتركة فى الوطن بين ملل مختلفة تضطر إلى الاستنجاد بما فى هذه الأديان كلها من مبدأ التعاون على الخير والتناصر على دفع عدوان المغيرين ـ ولذلك قيل بحق : (إن الوطنية التى لا تعتمد على باعثة من الخُلُق والدين إنما هى حصن متداع يوشك أن ينهار . وقد ثبت بهذا كله أن الأديان تحل من الجماعات محل القلب من الجسد) اهـ.

● عاطفة الكره وإلى أين وجهها الإسلام ؟

ولكن مما لا ريب فيه أن فى كل إنسان عاطفة أُخرى غير الحب . عاطفة البُغض والخوف والمقت ، وهى التى تفيض بالحقد والشر والحرب والدم ! فكيف ردم الدين هذا المستنقع الكريه أو إلى أى مصب وجهه ؟

قال الأستاذ (جود) الإنجليزى رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس فى إحدى كليات لندن :

(إن العواطف التى هى مشتركة والتى يمكن إثارتها بسهولة هى عواطف المقت والخوف التى تُحرِّك جماعات كبيرة من الدهماء ، بدل الرحمة والجود والكرم والحب ، فالذين يريدون أن يحكموا على الشعب ـ لغاية ما ـ لا ينجحون حتى يلتمسوا له ما يكرهه ، ويُوجدوا له ما يخافه ، و إذا أردتُ أن أُوحد الشعوب ينبغى لى أن أخترع لهم عدواً على كوكب آخر ـ على القمر مثلاً ـ تخافه هذه

الشعوب ، فلم يعد من دواعى العجب أن الحكومات القومية فى هذا العصر فى معاملتها لجيرانها إنما تُقاد بعواطف المقت والخوف ، فعلى تلك العواطف يعيش من يحكمونها ، وعلى تلك العواطف يقوى الإنماء القومى) .

وقد عقَّب الداعية الإسلامى الكبير السيد أبو الحسن الندوى على ذلك فقال(١) :

(إن هذا الحل الذى قدمه الأستاذ (جود) لمشكلة الأُمم ، ومعضلة الحروب ، والمنافسات الشعوبية ، حل عادل ، وتوجيه معقول ، فلا تنصرف عداوة الشعوب والأُمم بعضها لبعض حتى يكون لها عدو من غيرها تشترك فى عداوته وكرهه ، والمخافة منه ، وتتعاون فى الحروب ضده ، ولكن هذا لا يحتاج إلى اختراع وإبداع ، ولا يلزم أن يوجد لها عدو على كوكب آخر كالقمر والمريخ ، وأنَّى لهم التناوش من مكان بعيد ، فالدين يُنبِّه إلى أن هذا العدو للنوع الإنسانى ولذرِّية آدم يُوجد على الأرض نفسها ، وعلى كل إنسان أن يُعاديه ويحترس منه ، ويتعاون مع بنى نوعه فى معاداته ومحاربته . يقول القرآن : ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [فاطر :٦] .. ويقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** ﴾ [البقرة :٢٠٨] ..

وقد قسم الإسلام العالَم البَشرى إلى قسمين فقط : أولياء الله وأولياء الشيطان ، أنصار الحق وأنصار الباطل ، ولم يشرع حرباً ولا جهاداً إلا ضد أنصار الباطل وأولياء الشيطان أينما كانوا ومن كانوا فقال ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء :٧٦] اهـ .

وهكذا ضاقت دائرة البُغض ، وانكمشت عاطفة الكُره عند المؤمن ، فلم يعد يبغض لمنفعة شخصية ، ولم يعد يبغض لعصبية قَبلية أو قومية أو إقليمية

---

(١) صفحة ١٦٧ من كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

أو طبقية ، ولم يعد يبغض لحقد أو حسد ، وإنما انحصر بُغضه فى مجال واحد هو البُغض فى الله ، أى من أجل الحق وحده ، وفى ذلك يقول الحديث النبوى :« من أحبَّ لله ، وأبغضَ لله ، وأعطى لله ، ومنعَ لله : فقد استكمل الإيمان » .

● **التسامح جزء من العقيدة :**

ومع انحصار دائرة الكُره فى أهل الباطل والإثم والعدوان ، فإن كراهية المؤمن لهم ممزوجة بالألم من أجلهم ، والإشفاق عليهم ، وتمنى الخير لهم ، والدعاء لهم بالتوفيق والهداية : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .. ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ** (أى قاتلها) **أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء :٣] ..

وهناك أمران فى عقيدة المسلم يجعلانه مع استمساكه بدينه ، وثباته على إيمانه أشد الناس تسامحاً مع المخالفين له ، والكافرين بدعوته :

أولهما : أن المسلم يعتقد جازماً أن من مقتضيات الإرادة الإلٰهية التى لا تخلو عن الحكمة اختلاف الناس فى الدين والإيمان ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** ﴾ [هود : ١١٨] .. ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾؟ !

[يونس: ٩٩]

وإذا كانت مشيئة الله نافذة ـ ومشيئته تعالى مرتبطة بحكمته ـ فكيف يقاوم المؤمن مشيئة الله ، أو ينكر حكمة الله ؟

وثانيهما : أن الله قد أمر نبيه المصطفى أن يتجنب اللجاجة فى الجدل مع المخالفين ، وأن يكل أمرهم إلى الله ، ويعلنهم أن يوم الفصل بين المختلفين إنما هو يوم القيامة ، فلا داعى للجدال الذى يثير الفتن ، والمُراء الذى يُوغر الصدور .قال تعالى لرسوله : ﴿ **وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [الحج : ٦٨-٦٩] .. ويقول : ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ**

وأُمرْتُ لأَعْدلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وربُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا ولَكُمْ أَعْمالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بيْننا وبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وإلَيْه المَصيرُ ﴾ [الشورى : ١٥] .. ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تحكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر :٤٦] ..

ذلك هو المؤمن بعقيدة الإسلام : أحب الوجود كله ، أحبَّ اللهَ والطبيعة ، أحب الحياة والموت، أحبَّ القَدَر حلوه ومره، أحبَّ الناس جميعاً وإذا كره ـ ولا بد ـ فإنما يكره الشيطان ، ويكره حزب الشيطان ، كرهاً مقروناً بالرحمة والإشفاق وحب الخير ، للناس جميعاً .

إن هذا الحب هو دليل إيمانه بربه ، وقائده إلى جنته ، وصدق رسول الله : « والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تَحابوا » .

* * *

الثبات فى الشدائد

«عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير - وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن - إن أصابته سرَّاء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له» . .

[حديث شريف رواه مسلم]

● **الحياة لا تخلو من الشدائد :**

الأمل والأمن ، والرضا والحب ، والسكينة النفسية ، ثمار شهية لغراس العقيدة فى نفس المؤمن ، وذخائر لا تنفد لإمداده فى معركة الحياة ، وإنها لمعركة طويلة الأمد ، كثيرة التكاليف ، محفوفة بالأخطار والمشقات .

ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا ، وطبيعة البَشر فيها ، تجعلان من المستحيل أن يخلوا المرء فيها من كوارث تُصيبه ، وشدائد تحل بساحته ، فكم يخفق له عمل أو يخيب له أمل ، أو يموت له حبيب ، أو يمرض له بدن ، أو يُفقَد منه مال أو . . أو . . إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة . . حتى قال الشاعر يصف الدنيا :

جُبِلَتْ على كدرٍ وأنت تُريدها صفواً من الآلام والأكدار !
ومُكَلِّفُ الأيام ضد طبعها متطلبٌ فى الماءِ جَذوة نار

وإذا كان هذا سُنَّة الله فى الحياة عامة ، وفى الناس كافة ، فإن أصحاب الرسالات خاصة أشد تعرضاً لنكبات الدنيا وويلاتها ، إنهم يدعون إلى الله فيحاربهم دعاة الطاغوت ، وينادون بالحق فيقاومهم أنصار الباطل ، ويهدون إلى الخير فيعاديهم أنصار الشر ، ويأمرون بالمعروف فيخاصمهم أهل المنكر . . . وبهذا يحيون فى دوَّامة من المحن ، وسلسلة من المؤامرات والفتن ، سُنَّة الله الذى خلق آدم وإبليس ، وإبراهيم ونمرود ، وموسى وفرعون ، ومحمداً وأبا جهل ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ**

غُرُوراً﴾ [الأنعام : ١١٢] .. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان : ٣١]

هذا شأن الأنبياء . وشأن ورثتهم . والسائرين على دربهم . والداعين بدعوتهم مع الطغاة الصادِّين عن سبيل الله ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج :٨] ..

سُئل الرسول ﷺ : أيُّ الناس أشد بلاءً ؟ فقال : «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة» (١)

● **الملحدون أشد الناس جزعاً :**

وقد أثبت الاستقراء والمشاهدة أن أشد الناس جزعاً ، وأسرعهم انهياراً أمام شدائد الحياة هم الملحدون والمرتابون وضعاف الإيمان ، وقد وصف القرآن هذا النموذج من الناس فقال : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود :٩] .. ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت :٤٩] .. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً﴾ [الإسراء : ٨٣] .. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج : ١١] ..

إنهم لا يؤمنون بقَدَرٍ فيرضوا به ، ولا بإِلَه فيطمئنوا إلى حكمته في خلقه ، ولا بأنبياء فيجدوا في حياتهم القاسية قدوة وعبرة ، ولا بحياة أُخرى فتَهِبُّ عليهم نسماتها منعشة للنفس ، وطاردة للكآبة ، باعثة للأمل .

إنهم كسفينة فقدت الدفة والشراع وكل عوامل الثبات أمام الأمواج والعواصف ، فهي لأدنى حركة من الريح يشتد اهتزازها وتمايلها ، ويحيط بها الموج من كل مكان ، وسرعان ما تغوص إلى الأعماق !

---

(١) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

ولا غَرو أن نجد الانتحار أكثر ما يكون فى البيئات التى ضعف دينها أو فقدته ، فإن لم يكن الانتحار فهو الألم القاتل ، والجزع الهالع ، والكآبة الحزينة، والحزن الكئيب ، والحياة التى خلت من معنى الحياة .

ليس من مات فاستراح بميتٍ — إنما الميْتُ ميِّت الأحياء !
إنما الميتُ مَن يعيش كئيباً — كاسفاً بالُهُ قليل الرجاء !

● ثبات المؤمنين ومصدره :

أما المؤمنون فهم أصبر الناس على البلاء ، وأثبتهم فى الشدائد ، وأرضاهم نفساً فى الملمات .

عرفوا قصر عمر الدنيا بالنسبة لعمر الخلود فلم يطمعوا أن تكون دنياهم جنة قبل الجنة ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى** ﴾ [النساء :٧٧] .. ﴿ **وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ** ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ..

وعرفوا سُنَّة الله فى هذا النوع من الخليقة (الإنسان) الذى ابتُلِيَ بنعمة حرية الإرادة ، والاستخلاف فى الأرض ، فلم يطمعوا أن يكونوا ملائكة أُولى أجنحة ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ** ﴾ [الإنسان : ٢] .. ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ [البلد : ٤] ..

وعرفوا من سُنَنِ أنبيائهم ورُسلهم أنهم أشد الناس بلاءً فى الحياة الدنيا ، وأقل الناس استمتاعاً بزخرفها ، فلم يطمعوا أن يكونوا خيراً منهم ، ولهم فيهم أُسوة حسنة ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة : ٢١٤] ..

قال ابن القيم : يا مخنث العزم ... الطريق تعب فيه آدم ، وناح فيه نوح ، وأُلقى فى النار إبراهيم ، وتعرض للذبح إسماعيل ، ونُشر بالمنشار زكريا ، وذُبِحَ السيد الحصور يحيى ...

● **الإيمان بالقدر يُهوِّن على المؤمنين البلاء :**

وعرفوا أن ما ينزل بهم من مصائب ليس ضربات عجماء ، ولا خبط عشواء لكنه وفق قَدَر معلوم ، وقضاء مرسوم ، وحكمة أزلية ، وكتابة إلَهية ، فآمنوا بأن ما أصابهم لم يكن ليُخطئهم ، وما أخطأهم لم يكن ليُصيبهم .. ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [الحديد : ٢٢] ..

وعرفوا أن من صفته تعالى أن يقدر ويلطف ، ويبتلى ويخفف ، ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ** ﴾ [يوسف : ١٠٠] ..

وعرفوا من لطف ربهم أن هذه الشدائد دروس قيمة لهم ، وتجارب نافعة لدينهم ودنياهم ، تُنضج نفوسهم ، وتُصقل إيمانهم ، وتُذهب صدأ قلوبهم :

« مثل المؤمن تصيبه الوعكة من البلاء كمثل الحديدة تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها » .

وما أبلغ ما قال الرافعي : (ما أشبه النكبة بالبيضة ، تُحسب سجناً لما فيها وهى تحوطه ، وتُرَبيه وتعينه على تمامه ، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة ، والرضا إلى غاية ، ثم تنفق البيضة ، فيخرج خلق آخر .

وما المؤمن فى دنياه إلا كالفرخ فى بيضته : عمله أن يتكوَّن فيها ، وتمامه أن ينبثق شخصه الكامل فيخرج إلى عالَمه الكامل) .

● **شعور المؤمن بنعمة الله فى السرَّاء والضرَّاء :**

وعرفوا من مظاهر هذا اللُّطف والرحمة الإلَهية ما عرفه أحد السَلَف حين قال : (وما أُصِبتُ فى دنياى بمصيبة إلا رأيتُ لله فيها ثلاث نِعَم : أنها لم تكن فى دينى ، وأنها لم تكن أكبر منها ، وأننى أرجو ثواب الله عليها) .

وتلك نعَم تُلابس كل مصيبة فى دنيا الناس ، جديرة أن تُشعر المؤمن بشعور الشكر لله فضلاً عن الرضا بقضائه ، والصبر على بلائه .

● مصائب الدنيا تهون :

فكل مصيبة فى دنيا الإنسان قد تُعوَّض بخير منها ، أما مصيبة الدين فخسارة لا تُعوَّض ، ولذلك حين خُيِّرَ يوسف عليه السلام بين أن يُصاب فى دنياه فيُسجن ويكون من الصاغرين ، وأن يُصاب فى دينه فيصبوا إلى النسوة ويكون من الجاهلين، كما قالت امرأة العزيز للنسوة : ﴿ **وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ [يوسف : ٣٢] ..

حين خُيِّرَ يوسف بين الأمرين كان لابد أن يختار مصيبة الدنيا ، فقال : ﴿ **رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾ [يوسف :٣٣] ..

وكان مما علَّمه نبى الإسلام لأُمته أن يقولوا : « اللَّهم لا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا » (١) ..

● بعض الشر أهون من بعض :

وإن كل مصيبة لا شك أن هناك أكبر منها ، وقديماً قال الناس : (بعض الشر أهون من بعض) و(بلاء أخف من بلاء) و(من نظر لبلوى غيره هانت عليه بلواه) .

والمؤمن ينظر بعين بصيرته فيحمد الله على أمرين ؛ أولهما : دفع ما كان يمكن أن يحدث من بلاء أكبر ، وثانيهما : بقاء ما كان يمكن أن يزول من نعمة غامرة وفضل جزيل . فهو ينظر إلى النعمة الموجودة قبل أن ينظر إلى النعمة المفقودة، وينظر إلى البلاء المتوقَّع بجانب نظره إلى البلاء الواقع .

وهذا بلا شك يُحدث كثيراً من الارتياح والرضا ، فالبلاء المتوقَّع كثير وقد دُفِعَ عنه ، والنِعَم الموجودة كثيرة وقد بقيت له .

وهذا عروة بن الزبير أحد فقهاء التابعين فى الإسلام مَثَلٌ صالح للمؤمن الصابر الراضى ، المُقدِّر لنِعَمِ الله ، فقد رووا أن رجله وقعت فيها الأكلة فقرر الأطباء قطعها حتى لا تسرى إلى ساقه كلها ثم إلى فخذه ، وربما ترقت إلى الجسد فأكلته ، فطابت نفسه بنشرها . فعرضوا عليه أن يشرب شيئاً يُغَيِّبُ عقله حتى

---

(١) رواه الترمذى والحاكم .

لا يحس بالألم ويتمكنوا من قطعها فقال : ما ظننتُ أن أحداً يؤمن بالله يشرب شيئاً يُغَيِّبُ العقل حتى لا يعرف ربه عز وجل ، ولكن هلموا فاقطعوها ، فقطعوها من ركبته وهو صامت لا يتكلم ، و لا يُعرف أنه أنَّ (اشتكى) !!

وشاء القَدَرُ أن يُبتلى الرجل على قدر إيمانه ، ففى هذه اللَّيلة التى قُطعَت فيها رجله سقط ابن له - كان أحب أولاده إليه - من سطح فمات ، فدخلوا عليه فعزوه فيه ، فقال : اللَّهم لك الحمد ، كانوا سبعة فأخذتَ واحداً وأبقيتَ ستة ، وكان لى أطراف أربعة فأخذتَ واحداً وأبقيتَ ثلاثة ، فإن كنتَ أخذتَ فلقد أعطيتَ ، ولئن كنت قد ابتليتَ لقد عافيتَ !!

● **حلاوة الثواب ومرارة الألم :**

ورجاء مثوبة الله تعالى على ما يُبتَلى به الإنسان فى دنياه نعمة روحية أُخرى تُهوِّن على الإنسان البلاء ، وهذه المثوبة تتمثل فى تكفير السيئات ، وما أكثرها !! وزيادة الحسنات ، وما أحوج الإنسان إليها ! وفى الحديث الصحيح : « ما يُصيب المسلم من هَمٍّ ولا غَمٍّ ولا نَصَبٍ ولاوصب - حتى الشوكة يُشاكها - إلا كَفَّرَ الله بها من خطاياه » .

أصاب أحد الصالحين شىء فى قدمه فلم يتوَّجع ولم يتأوَّه ، بل ابتسم واسترجع ، فقيل له : يُصيبك هذا ولا تتوَّجع ؟ فقال : إن حلاوة ثوابه أنستنى مرارة وجعه !

● **الملحدون يعترفون بأثر الإيمان فى الأزمات :**

بقى أن نقول : إن الملحدين أنفسهم شعروا بأن أنظمتهم وفلسفتهم المادية الجامدة لا تستطيع أن تهب للناس الروح المعنوية التى تهوِّن عليهم الشدائد ، وتمدهم بالصبر والثبات فى الأزمات ، ولم يملك الشيوعيون - على تعصبهم - فى الحرب العالمية الثانية إلا أن يُطلقوا سراح الدين وقتاً ما ليؤدِّى دوره فى تثبيت النفوس وإمساكها أن تنخلع وتنهار ، وأرغمتهم الظروف أن يتركوا الشعوب ترجع إلى فطرتها فتملأ فراغها بما لا يمكن أن تُملأ إلا به ، بالإيمان .

* * *